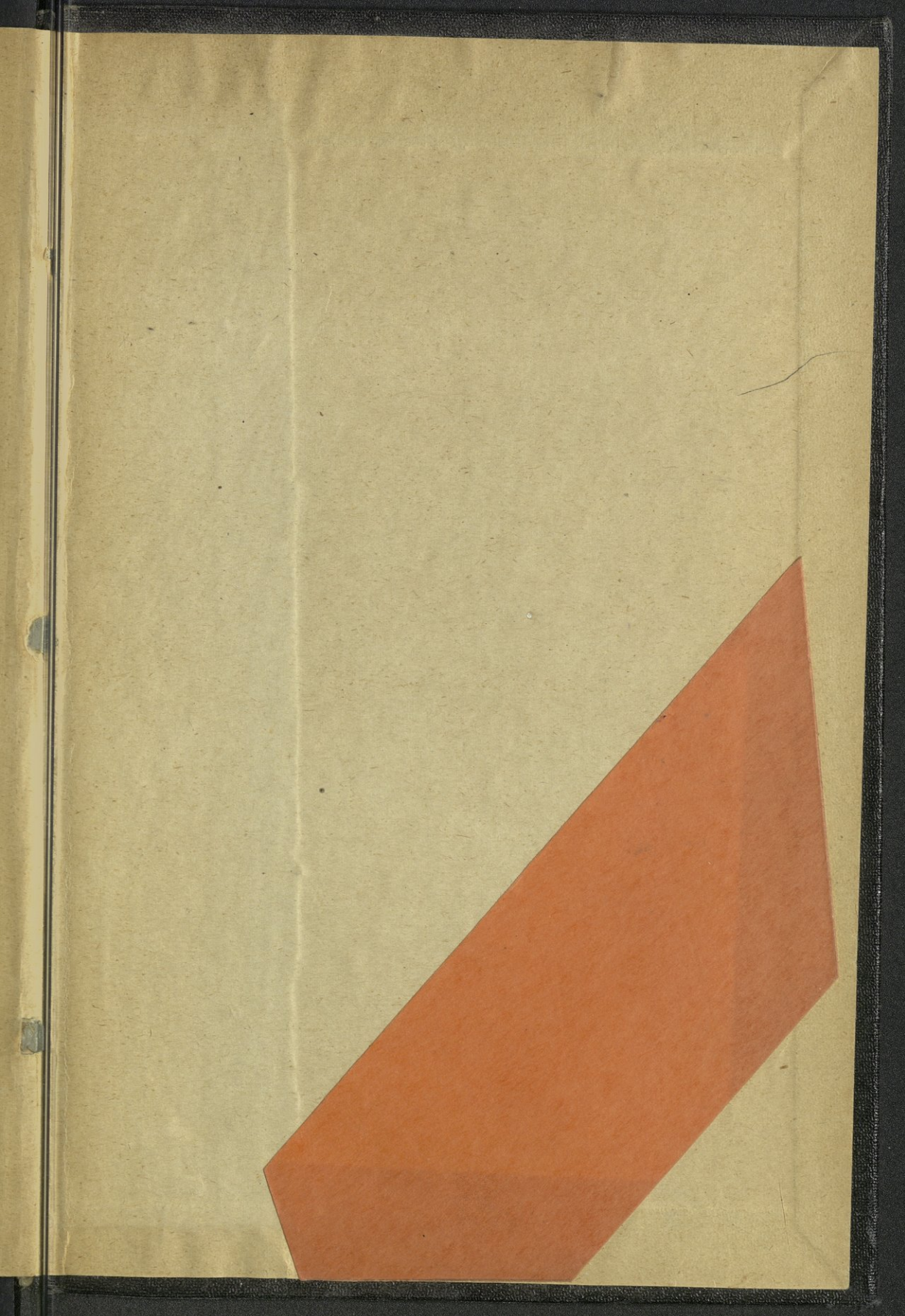


تفنی

مجموعه

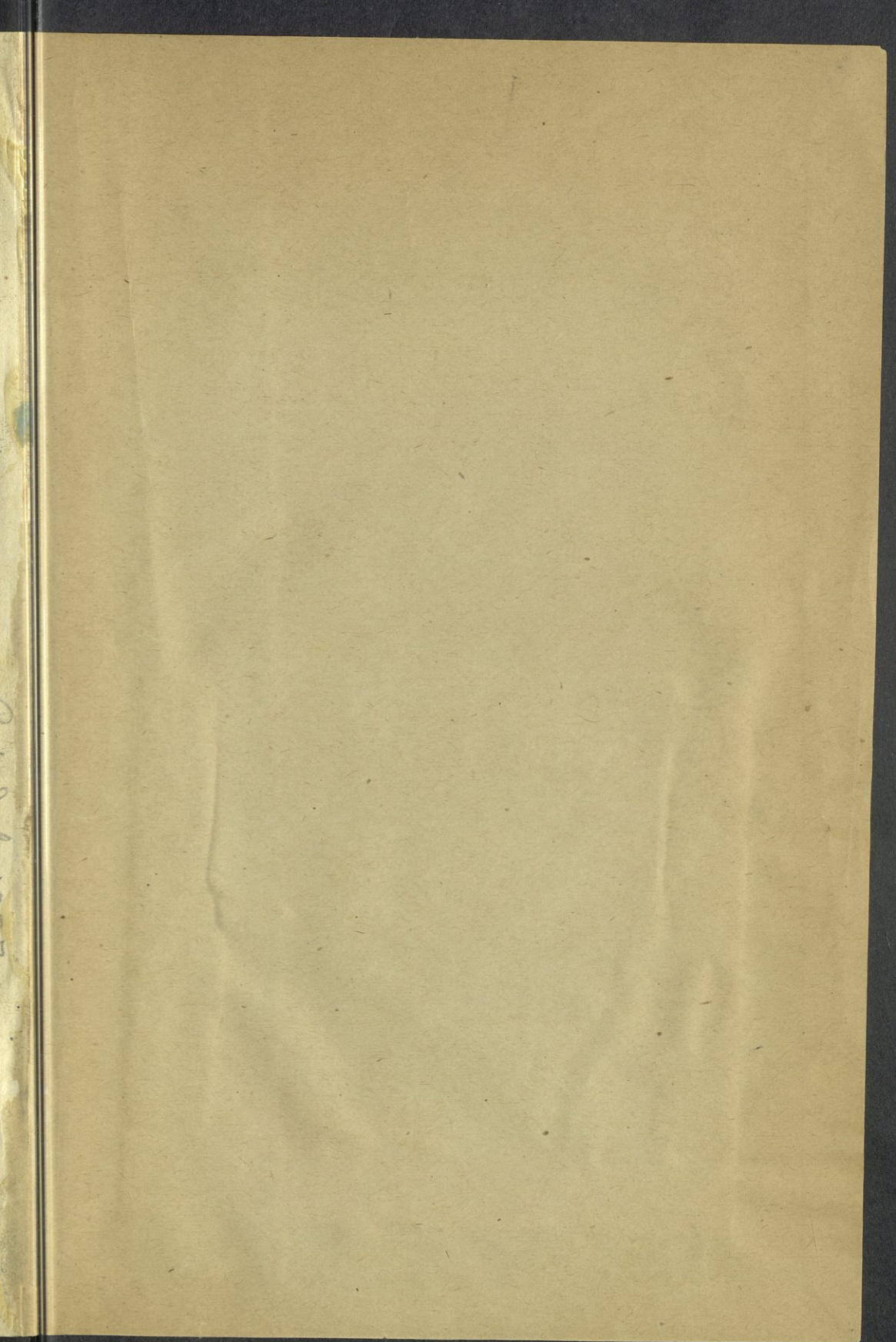


Si

AG 8.

Oct

MAY



تقدمة ٤

892.73

Sh531aA

توفيق حسن الشرتوني

مكتبة الكلمة
١٩٢٨

٢٠٠٠

892.78

Sh562hiA

c.1

الحكيم وأولياء

قصة تحليلية تبحث في العضلات الزوجية والمشاكل الاجتماعية

Cat. July 1937

57107

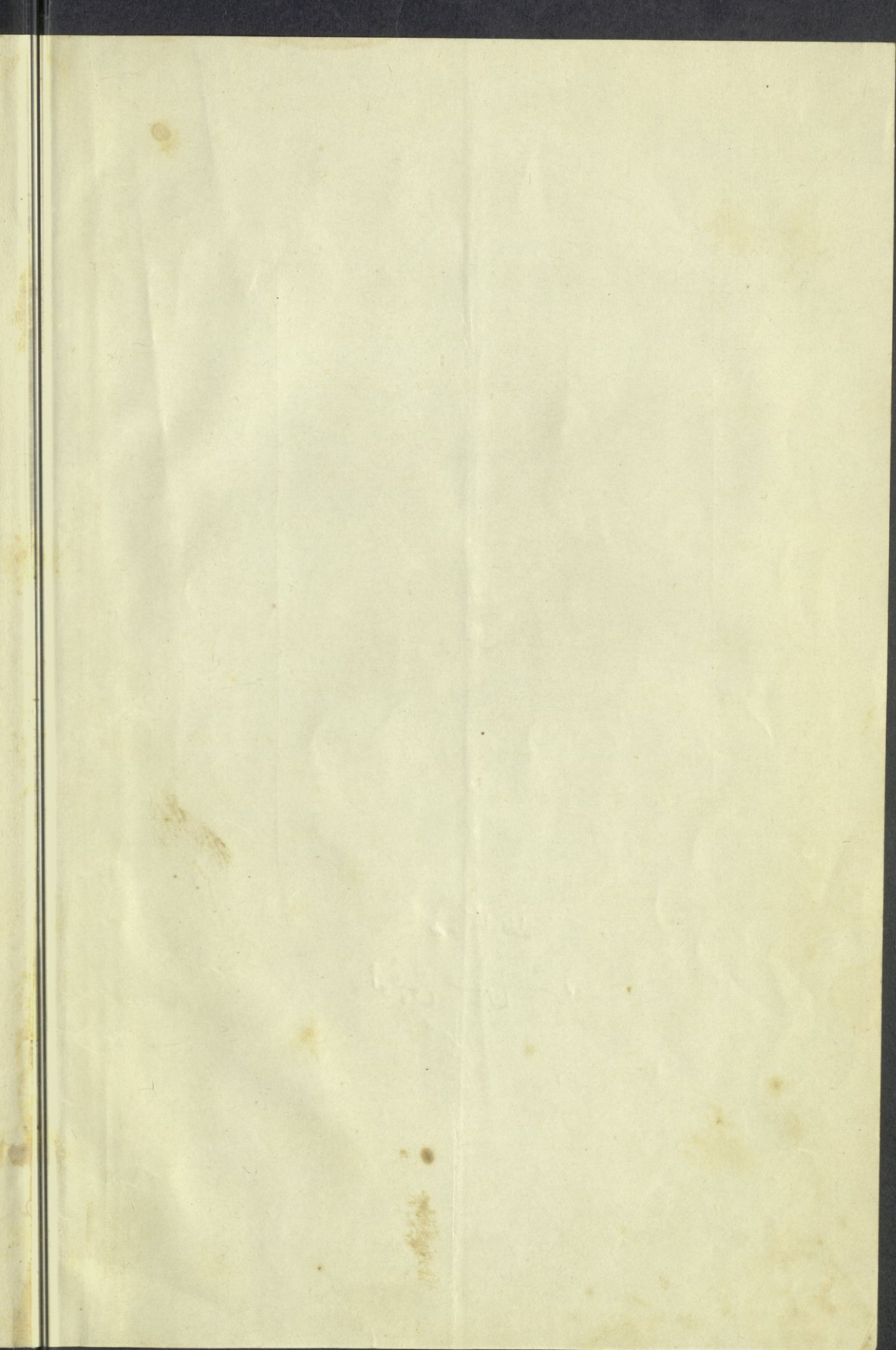
مطبعة صادر - بيروت ١٩٣٧



55-32
25-40
25-40
25-40



رسم المؤلف
نوفيق حسن الشرشوني



ان الهدف الذي يجب ان يتوخاه الادباء في منشورهم ومنظومهم
هو فائدة المجتمع الانساني وزيادة رقيه ومعارفه .
فالكتب الادبية التي يقرأها الناس ولا تفيدهم هي بنظري ليست
من الادب بشيء لأنها لا تمثل غاية الادب السامية .
فكل من يكتب عن اخلاص وعقيدة ودرس واختبار وينبذ
التصنع والتقليد والتعصب للاديان والاطوان والمجاملات الباطلة هو
ولا شك يترك للاجيال المقبلة اثرأ خالداً مفيداً .
ان الصدق في القول والعمل وفي الاخذ والعطاء ليس فقط هو
اساس المعاملات المادية بين الناس بل هو ايضاً جوهر الادب الصافي
في هذا الكون .
فالادباء الصادقون في ادبهم المخلصون في سرد افكارهم وحقيقة
شعورهم هم وحدهم الخالدون .
ان مرور الاجيال يقضي على الابطال والترهات ولا يبقى الا
على الحقائق .

توفيق مسمر نادر
العمروني

بيروت ١٩٣٧/٣/٥

الفصل الاول

سلمى وبلى

في صباح يوم من ايام شباط ١٩٣٤ هبت سلمى مذعورة
 من فراشها لصياح شديد حدث في دار جارتها ليلي .
 فايقظت زوجها وطلبت منه ان يتفقد بيت جارتها لعل
 طارئاً طرأ عليها او على افراد عيلتها .
 فقام للحال ودخل بيت ليلي فرأى زوجها يشد بشعرها
 ويلطمها اللطمة اثر اللطمة وهو يعربد من السكر وهي تصيح
 صياحاً شديداً من ضربه المبرح
 فدخل بينهما وانتزع المرأة المسكينة من يدي زوجها وارسلها
 الى بيته . ثم اخذ يلطف من حديثه الى ان استكن .
 اما ليلي فبعد ان دخلت بيت جارتها سلمى وعاد اليها روعها
 اخذت تقص عليها بعض الحوادث الجنونية التي يرتكبها زوجها
 غالباً وهذا بعض ما قالته لها :

اعذريني يا جارتني لاننا دائماً نزعجك بصياحنا . ان زوجي
رجل قاسٍ فاحش ومقامر سكير لا يعود الى بيته قبل انبتاق
الفجر وهو يجيئني تارة من الحانة سكران يزجر ويعربد ، وطوراً
من نادي المقامرة خاسراً يُرغي ويُزبد واحياناً من دور الفحش
يتهدّد ويتوعد .

وكلما وددت نصحه ضناً عليه وعلى اولاده انهال عليّ ضرباً
وشتماً وكلما لاطفته وحاسنته زاد طيشاً وخلاعة . والويل لي اذا
خاصمته او وقفت بوجهه في امر من الامور فيزداد حقّةً وبذاءةً
وينكل بي تنكيلاً .

أقسم لك يا جارة أنني لولا اطفالي الذين ما برحوا بجاجة
الى عنايتي لما كنت احجم عن الانتحار لاتخلص من حياتي
التاعسة .

انني حزينة حتى الموت لعدم تمكني من ارشاد زوجي
الى الصراط القويم ولعدم قدرتي على احتمال نقائصه الفظيعة
ومعاملته الشائنة .

سلمي — لا نياسي يا جارة إصبري على بلواك ولا شك انك ستناين
راحة وفرجاً .

لا نقطعي الامل من اصلاح زوجك مهما كان خليماً اثماً

او مقامراً سكيراً . فكم خليع تاب عن خلاعته وكم انيم ارعوى
 عن غيه . وكم مقامر او سكير عاد عن مقامرته وسكره .
 ليلي - من الخال يا سلمى ان يعود عن ضلاله لانه متمرغ في النقائص
 من اخص قدميه الى قمة رأسه ولهذا السبب لا امل باصلاحه ولا
 رجاء لي بالراحة ولا بالفرج .

سلمى - لا تقنطي مهما كان خطبك جللاً . فاذا لم يكن من امل
 باصلاح زوجك فاصري جل اهتمامك بامر تربية اولادك
 واعظني عليهم عطف الام الرووم . فغداً يشبون ويرون كم ضحيت
 لاجلهم فيحسنون معاملتك قدر احسانك اليهم . ان الله لا
 يضيع اجر المحسنين .

ليلى - هذا حلم جميل حبذا لو تحقق . ولكن كيف يتحقق وولدي
 البكر يكاد يبلغ الثانية عشرة من عمره . فهل اعيش على هذه
 الحالة الموحشة وهذه المعاملة الشائنة الى ان يشب اولادي ؟
 لا لا ، اني اموت قبل ان اراهم رجالا .

سلمى - يظهر لي انك في غاية القنوط ليس لك بريق امل في الحياة
 الهادئة المستكنة . ثقي يا جارة ان نور الامل لم يخب من حنايا
 قلبك كما تعتقدين . فاذا كنت لا تبصرين بريقه اليوم فغداً
 تبصرينه مشعاً في داخلك يهديك الى الطمأنينة التي تنشدونها .

لقد قنطت مثلك في ماضي حياتي ويئت يأساً شديداً .
ولم اكن اتوقع غير مستقبل قاتم وحياة تاعسة مظلمة . وها انا
الان اعيش مظمئنة الى جانب زوجي على عكس ما كنت
اتوقعه .

لقد قادني العناية الالهية الى رجل حكيم اتقذني من
هواجسي ويأسي ومن عثراتي الكثيرة .
انني لقيته انفاقاً في يوم ممطر كنت به في منتهى اليأس
وكان جالساً في خيمة قائمة على مرتفع من حديقة معامل السيوفي
أولياً اليها يتقي المطر .

هناك تعارفنا وما عثم ان قرأ على وجهي علائم الاضطراب
الشديد فسألني بلطف عن امري ولما انست منه عطفاً ادليت اليه
ببعض ما يكنه فؤادي من العذاب والالم . فرأيت به نعم المرشد
ونعم الصديق .

ثم اخذنا نلتقي هناك وكنت كل مرة ابته جانباً من قصتي
وسبب عذابي وألمي . وكان دائماً يرشدني الى طريق الصواب
حتى اراحني بقوة نصائحه من كل همومي ومتاعبي .
غداً انشاء الله ادعوه وادعوك الى تناول الغداء واعرفك
اليه لعلك تزين فائدة على يده .

ليلي - اشكرك شكراً جزيلاً على اهتمامك بي وسأزورك غداً لا تعرف
اليه وان كنت لا اتوخي فائدة من وراء ذلك . فما كتب لي
من الشقاء والتعس قد كتب .

الحكيم في بيت سلمى

في الساعة الثانية عشرة من اليوم الثاني دخل الحكيم بيت
سلمى وكانت جارتها ليلي هناك فعرفتها اليه قائلة :

ارجو منك ان تشملها بنصائحك لأنها بحاجة اليها .

فاجابها : لا رجاء على ذلك فاذا كانت تشعر انها بحاجة الى

معارفي ربما اكون انا ايضاً بحاجة الى بعض معارفها .

ان الانسان مهما سما عقله وارتفعت منزلته يظل دائماً بحاجة

الى اخيه الانسان .

ان المعرفة مشاغ وكل امرئ مهما ضوئل امره يملك جزءاً

من هذا المشاع .

ثم التفت الى ليلي وقال لها :

منذ الان تقدرين ان تتخذي صديقاً مخلصاً ونصيحاً أميناً فلا

شيء احب اليّ مثل رفع الانتقال والهواجس عن عواتق الناس .

ان غايتي في الحياة تنحصر في اسعاد البشر وتعليمهم كيف
 يجب ان يبتعدوا عن الشقاء
 تعالي اليّ ساعة نشاء بن وكميني بصراحة عن كل ما يوئلك
 لعلني اخفف بعض ألمك .

تعالي اليّ بلا امتنان ولا استعطف ان بابي مفتوح على
 مصراعيه يلجّه اليأسون واليأسات والمنكوبون والمنكوبات .
 تعالي اليّ فانا لست من اولئك الذين يرون في جمع المال
 فوزاً .

ولا من اولئك الذين يرون في ارتقاء منصة الاحكام نصراً .
 ولا في معاشرّة الملوك والرؤساء فخراً . ولا في بلوغ اسمي
 المراتب الدينية او الدنيوية مجداً .
 انني وايم الحق لا اشعر بفوز الا عندما افوز على محنة من
 محن الناس .

ولا احسن بنصر الا عندما اقضي على آفة من آفاتهم .
 ولا المس فخراً أو مجداً الا عندما اقدر ان اؤدي خدمة
 مفيدة لاحدهم .

يلي - اشكرك من صميم فؤادي واعدك انني سأذهب اليك في كل
 فرصة تسنح لي لامتّع بجليل حكمتك ورأيك .

الحكيم - لا شكر على الواجب فاذا كان لي رأي مفيد كما تزعمين
فهو ليس ملكي بل هو ملك الناس لان مواهبي كلها مستعمدة من
منهل الانسانية . فاذن هي للانسانية .

وبينما هما في هذا الحديث دخل عليهما شقيق زوج سلمى
عائداً من عمله . فحياهما تحية مخصصة ثم دعاهما الى قاعة الطعام .

حديث المائدة

وفيما هم يتناولون الغداء اخذ الحكيم يتحدث عن لذة الحياة
العائلية الهادئة ، قال :

مهما يكن في الحياة من لذات فاهناها بلا جدال لذة الحياة
العائلية التي يتمتع بها المرء داخل جدران بيته .

ومهما يكن في الحياة من شقاء فاشدها وطأة على المرء شقاء
البيت .

ان المصيبة مهما كانت جسيمة ينتهي امدها والخسارة مهما
كانت فادحة ينساها المرء بعد قليل . لكن المشاحنات الدائمة
« والنكرزات » المتواصلة التي تحدث بين الزوجين او بين افراد
العيلة الواحدة لا يحى اثرها لانها تتجدد كل يوم فتجدد الحقد

والنفور وتورث الشقاء والازعاج الدائمين .
 انني اشعر بفرح عظيم كلما دخلت بيتاً لا يثر فرف فوقه غير
 ملائكة السلام والوثام .
 واحس بجزن عميق عندما الج داراً لا تمرح فيها غير
 شياطين النعمة والخصام .

ثم التفت الى سلمى وزوجها وقال لهما :
 ان الزائر الذي يلج بيتكما لا يلمس في داخله غير اللفة
 الصحيحة والعيش الهنيء . اني اغبطكما واغبط كل امرئ عرف
 مثلكما ان يعيش بظماً نينة منتصراً على متاعب الحياة ومشاكلها
 المزعجة .

وما خلا ذلك فاني لا اغبط احداً مهما كان كثير المال
 وعظيم الجاه وسامي المقام . لان المرء لا يصل الى سعادة الحياة
 الا عن طريق الحلم والتضحية والخلق المتين .
 سلمى — ان كنت ايها الحكيم تلمس السعادة في هذا البيت فانت
 مصدر هذه السعادة لانني منك درست معرفة الحياة ومن جليل
 نصائحك ووصاياك وصلت الى السعادة التي تغبطني عليها .
 فكما ان الطعام هو غذاء الاجسام هكذا كلامك المفعم
 بالحكمة والاخلاص والشعور هو غذاء الارواح .

الحكيم - ثقي يا سلمى ان الرجل الذي يعمل بعض واجباته لا يستحق
شكراً ولا ثناء . فعلى كل امرئ ان يعمل في سبيل الانسانية
على قدر ميزاته ومواهبه .

فاذا جئت الآن تتفقدين اعمالي فهل تربنها موازية لمواهي؟
وهل يا تيري قت بكل ما يتحتم عليّ ان اقوم به تجاه
الانسانية؟

انني والحق يقال اشعر بقصوري وأرى انني أستحق منك
اللوم بدل الثناء .

ان الرجل العادي الذي يهب الناس كل ما يعرفه هو
اهلٌ للثناء اكثر من العلماء والحكماء الذين لا يهبون الناس الا
بعض معارفهم .

ومن يطلب من الجاهل ما يطلبه من العالم فهو من الظالمين الغاشمين
سلمى - ربما كان الحق بجانبك لكن عرفان الجميل يدعوني لأن
اوؤدي الثناء لمن كانت نعمتي عن يده .

والآن كل ما اتمناه ايها الحكيم أن ترمق جازقي ليلي
بلا حظة عنايتك والتفانك . وترشدها بجليل رأيك وحلمك كي
تهبها كما وهبني النعمة والطمأنينة . لانها من اشق النساء حظاً
وانعسهن حياة .

الحكيم - لقد صرّحت لها انني اقوم بمساعدتها كل جهدي والان اكرز
تصريحى واقول لها علانية : انني مستعد لاستقبالها ساعة تشاء
وهي بقبولها خدمتي تخدمني اكثر مما انا اخدمها لانني اكون قمت
بواجب مقدس يدعوني اليه ضميري وخالص وجداني .

إلى - اشكر لك عواطفك السامية واهتمامك الكلي في خدمة الناس .
لقد صمّمت ان ازورك في كل فرصة تسنح لي . فاذا لم افز بمنائي
واحصل على الراحة التي انشدها فعلى الاقل ابثك شكواي ،
واعترف لك بكل ما يؤمني لعلي اتعزى نوعاً عند اجتماعي كلامك
العذب ونصائحك الرصينة .

الحكيم - ثقي يا ليلي كما ان الفنان لا يرتاح اذا تكلم عن فنه الا امام
رجل يتذوق الفن . هكذا المتألم لا يرتاح اذا تكلم عن ألمه الا
امام رجل يشعر بالالم .

وانا من اولئك الذين يتألمون لآلام الناس ويحسون بمضض
اوجاعهم وشدة عذابهم .

والان حان وقت رجوعي الى البيت فاودّعك واتمنى ان
اراك قريباً .

ثم وقف الحكيم فودّع سلسى وزوجها وشكر لها حاشتها
الشريفة وحسن ضيافتهما ، وانصرف .

الفصل الثاني

يلبى في بيت الحكيم

وبعد مرور ايام وجيزة جاءت ليلى الى منزل الحكيم
فدخلت عليه مضطربة دامعة العين . فرحب بها ترحيباً جميلاً ثم
خاطبها بعطف قائلاً :

ماذا حدث لك يا ليلى لانى اراك شديدة الاكتئاب
والاضطراب .

ليلى - اننى مضطربة من كثرة المحن لقد قضيت الليلة وصباح اليوم
وانا اتحمل شتاً ولطماً .

في منتصف ليلة أمس عاد زوجي الى البيت يطفح سكرًا
ومنذ اكتحلت عينه بعيني بادرنى بالشم واللطم فعاملته بالحسنى
وتوسلت اليه حباً باولادنا بان يخفف من حذبه . فما كان منه الا
ان استشاط حنقاً وغيظاً وازداد صياحاً وعريضة . فأفاق الاولاد
من نومهم مذعورين من شدة صياحه واستغرقوا في البكاء .
فبدلاً من ان يمنو عليهم ويؤانسهم شأن كل الآباء قام

يضر بهم ضرباً مبرحاً . فدخلت بينه وبينهم خوفاً عليهم واخذت
 تحمل لظمانه الموجعة وضرباته الاليمة . ولم يهدأ غضبه الا بعد
 ان اشبعني ضرباً وشتماً . ثم قام الى فراشه ونام نوماً عميقاً كأنه لم
 يفعل شيئاً .

فقلت في نفسي : تصبري يا امرأة ان ما فعله زوجك ربما
 يكون ناتجاً عن السكر فغداً ينهض صاحياً ويندم على ما فعل .
 لكنه استيقظ في اليوم الثاني وكان في سكره اخف
 وطأة منه في صحوه .

لقد ابتداءً منذ نهوضه يرميني بقوارص الكلام ، ويلطمني
 بيدٍ احدٍ من السهام .

ولما رأيت نفسي عاجزة عن احتماله ولم أر سبيلاً لتهدئة
 روعه باللطف والمحاسنة رددت له الشتيمة ووقفت بوجهه وقفعة
 المدافع المستमित . فازداد هياجاً وجنوناً واخذ يصفعني ويصفع
 الاولاد بكلمات يديه بلا شفقة ولا رحمة .

ولما رأيت الاولاد يصرخون من الضرب والذعر صراخاً
 شديداً صحت مستغيثة باعلى صوتي . فجاء الجيران وانقذوني
 واولادي من بين يديه .

فتركت اطفالي في عهدهم وجئتكم وانا في غابة القنوط

متوسلة ان تقذني من محالب اليأس وترشدني الى طريق الخلاص
الحكيم - هدي روعك قليلا يا ليلى واعلمي ان المرء منذ ولادته محاط
بالمشاكل ومستهدف للطوارئ . وما قيمة الحياة واهميتها الا في
التغلب على كل ما يحيط بنا من المتاعب والمصاعب .

تأمل اطفال وانت ام الاطفال كيف يجاهدون جهاداً
متواصلاً ليتعلموا الجلوس والوقوف والمشي .

تأملهم كم من المرات يسقطون على الارض ويلتطمون
التظاماً مؤلماً ولا ينفكون مجاهدين الى ان ينالوا امنيتهم .

تأملهم كم يعانون من العذاب ليتعلموا النطق ويتغلبوا على
مشاكل الطفولة .

أفما اولى بالشبان والشابات والمتزوجين والمتزوجات الذين
كثرت حاجاتهم وتضاعفت مسؤولياتهم بان يقتدوا بالاطفال
ويضاعفوا جهودهم في معترك الحياة ليتغلبوا على مشاكلهم ويفوزوا
في اعمالهم ؟

أليس بازدياد الحاجات والمسؤوليات تزداد المتاعب
والمصاعب !

اذن علينا ان نسعى دائماً لترويض نفوسنا على مجابهة كوارث
الحياة مهما اشتدت وطأتها وان نغرس في قلوبنا بذور الشجاعة

ومحبة التضحية وانكار الذات لنكون في كل اعمالنا مثلاً
 صالحاً في ساعات الشدة كما في اوقات اللين وفي مواقف الحزم
 كما في مواقف الحلم وفي الصفات الحميدة كما في الاخلاق السامية
 ان الناس يروّضون البهائم ويهتمون بامر تربيته وتدجينها
 ويعتنون بالازهار وبمختلف النبات والاشجار ويسهرون على
 نموها وتحسينها . أما الانسان فمن يعني بامر تثقيفه غير الانسان .
 فعلياً ان نهتم بامر تثقيف بعضنا بعضاً وان نتعاون على كبح
 جماح اهوائنا مهما كلفنا الامر من مشقة وجهود وتضحية وان
 يعلم كل منا ابناء محيطه ما يعلمه ويتعلم منهم ما لا يعلمه .
 وما ادراك ان العناية الالهية القت على عاتقك هذا الرجل
 الشاذ لاجل استئصال شأفة شذوذه وترويضه على الفضائل
 والخلق المتين .

فاذا لم يصطدم الخير بالشر فلا تتقدم الانسانية في طريق
 الفضائل .

ولهذا السبب أعزّو الفضل كل الفضل لمن يمزج بالاشرار
 ويخالطهم ولا ينفك يعالجهم بالحسنى متحملاً شرورهم وآثامهم
 الى ان يفتح بوجوههم مسالك الخير .

أما اولئك الذين يعتقدون بنفوسهم اختياراً بمجرد ابتعادهم

عن الشر وانقطاعهم عن الناس فينزوون في عقر دورهم هاربين من
المجتمع الانساني ومن تحمل متاعبه ومعالجة نقائصه فهم من كل
الوجوه يشبهون الاغنياء البخلاء الذين يضمنون على الناس
بفضلات خيراتهم ولا ينفعون أحداً في مالهم .
هكذا هم لا ينفعون احداً في انزوائهم .

ان المرضى لا يطرحون خارجاً مهما كانوا عالة على ذويهم
أو على الانسانية بل يداوون ويعاملون بالرفق والصبر ويعالجون
بشتى الوسائل إلى أن يبرأوا أو يموتوا .

هكذا ذوو العاهات وسبئو الاخلاق والصفات هم مرضى
أيضاً . يجب أن لا نطرحهم خارجاً مهما كانت وطأة عاهاتهم
وشدوذهم ثقله على أهلهم أو على المجتمع الانساني . فاعلينا إلا
أن نحسن معاملتهم ونترفق بهم ونهتم بامر معالجتهم الى النهاية .
فكم عليل تسوء أخلاقه من جراء العلة فيتأفف بلا سبب
موجب للتأفف ويشتم بلا داع للشتم ويدم المتولجين بامره مهما
خدموه واعتنوا به ويتحامل حتى على ابويه وزوجته وأولاده
ورحطه الادنين الذين يسهرون على راحته ويضحون بكل
شيء في سبيله .

فهل يجوز بمخاطر أحد منهم أن يواخذه على شتمه وذمه أو
 يمتنع عن معالجته وحسن معاملته ؟
 لا ، لأن كلاً منهم يعلم حق العلم أنه عليل متوتر الأعصاب
 يتطلب معالجة لا عدلاً وشفقة لا عدلاً .
 هكذا عليل الخلق ، فهو يتطلب حسن المعالجة لا اللوم ،
 والشفقة لا العدالة .

ليلي — اني موقنة ايها الحكيم ان لا امرأة نتحمل الاذى الذي تحمّلته
 فلو كان زوجي يحمل علة خلقية واحدة لتحملتها بلا مضض
 وسعيت جهدي لمعالجته بشتى الوسائل . لكنه لسوء الحظ رجل
 موبوء بالمشالب ومتمرّغ بكل المعاييب .
 فماذا اداوي وماذا اعالج !

لقد ورث عن والديه ثروة طائلة بدّد اكثرها في الخانات
 وفي دور المقامرة والفحش .

كنت سابقاً أعزو طيشه وخلاعه الى هوس الشباب .
 وكنت امني النفس بانه ولا شك سيرعوي عن غيه . أما اليوم
 فقد بدا لي انه كلما تقدم سنّاً زاد نقصاً وكلما خسر مالا زاد تهتكاً
 وسكراً . ويا ليتة ينتبه لحاله ليحرص على القليل الباقي لديه
 تأمينا لحياته وحياة عيلته .

فاذا كنت حتى الان اكظم نفسي واتحمل فضاظة طباعه
وضربه ومعاملته الشائنة فانا واثقة انني في الغد لا أقدر أن اتحمل
فوقها الحاجة والعسر وأرى بأمر عيني اولادي يتضورون جوعاً .
ولو كانت زوجي بوسعه أن يشتغل اذا خسر ماله ويقوم
بأودعيلته لكان الامر . لكنه شأن كل ابناء الاغنياء لا يعرف
عند مسيس الحاجة ان يكسب رزقه بعرق جبينه لأنه لا يحسن
عمالاً ولا مهنة .

لقد كنت محسودة عندما تزوجته وكنت كلما التقيت
برفيقتي يقلن لي : نهنتك بحسن حظك . لقد اتما الله عليك
ومنحك زوجاً شاباً جميلاً وافر الثروة والجاه . فانعمي بماله
وجاهه وجماله واذكري رفيقاتك بالخير وادعي لهن بحسن الحظ .
وها أنا الآن ايها الحكيم تلك المرأة المحسودة من رفيقاتها
أتعس خلق الله في حياتها . لانني منذ اقتراني به لم أذوق مرة
واحدة ذلك النعيم الذي أحسد عليه .

الحكيم - يا ايلي : ان معظم الناس يحكمون على ظواهر الامور لا على
بواطنها لأنهم مولعون بالباطيل والترهات . ولهذا السبب
نراهم يحسدون الاغنياء على ثرائهم والموظفين على وظائفهم وذوي
الالقب الفخمة على القابهم لاعتقادهم انهم اسمي منهم مقاماً

واكثر منهم سعادة وحظاً .

حالة كونهم لو تفقدوا محيطهم وسبروا غور حياتهم وبيئاتهم
وتبينوا كثرة مشاكلهم الاجتماعية والادبية لرأوا معظمهم لا
يعرفون للسعادة معنىً وربما كان بعضهم يستحقون الشفقة لا
الحسد .

لكن الناس قلما ينظرون الى أبعد من انوفهم وهذا هو
سبب شقائهم وتعسهم .

فهم لا يفقهون بل لا يريدون ان يفقهوا — ان لا مجد في
الملك — ولا سعادة في القصور الشاهقة — ولا في الرياش الفاخرة
— ولا في الخيول المطهمة — ولا في كثرة الخدم والحشم —
ولا في تصدر المجالس والمنتديات .

ان المجد الصحيح هو مجد الحياة النقية الطامحة الى اكتساب
العلم والمعرفة . والسعادة الحقيقية هي سعادة النفس التواقفة الى
الفضيلة والبر والى مجابهة النوائب ومحاربة الشوائب .

اني ارثي لحالة الاغنياء المستعبدين لشهواتهم واموالهم واشفق
على الحكام الخانعين تجاه نفوسهم وروءسائهم والمستبدين بموظفيهم .
هؤلاء يتبجحون انهم يحكمون الامة بمضاء حزمهم وعزمهم
ويضبطون بفضل اقتدارهم ومعارفهم دوائرها الواسعة حالة كونهم

يعجزون ان يحكموا ذواتهم وان يضبطوا دوائر نفوسهم الضيقة
ومن لا يضبط ذاته فكيف يضبط دوائر الاله ومن لا
يعرف ان يحكم نفسه فكيف يحكم الناس ؟
ان البشر لم يصلوا بعد الى معرفة الحقيقة المجردة . حقيقة
معرفة ذواتهم - وحقيقة وجودهم ووجدانهم .
انهم يتخبطون في معترك الحياة خبط عشواء - يتخبطون
في معتقداتهم وشرائعهم وفي دساتير حكوماتهم المسنونة على
الجشع وحب الأثرة ويتسكعون في دياجير سياساتهم القسائمة
على الدهاء والمصانعة لا على الصراحة والاخاء الانساني .
ان معظم الذين حكموا الناس في العصور الغابرة ولا
يزالون يحكمونها في هذا العصر الذي يدعى عصر النور والمدنية
والعلم والعرفان هم اولئك الرجال الدهاة الفاقدو الشعور والوجدان
الذين يتسلطون على رقاب العباد بقمرة السيف أو بقوة التدجيل
والترهات لا بقوة الحق والحرية والمساواة .
ان عصر الحق لم تبنغ شمسه على الناس كي ينظر بعضهم
الى بعض نظر محبة وعدل واخاء . لا نظر حقد وجشع ورياء .
يا ليلي : اذا كنت تشكين الحيف والظلم في حياتك المنزلية
وفي معاملة زوجك الجائرة فليست وحدك الشاكية في هذا

العصر .

ان معظم الناس يشكون من ظلم حكامهم وسياسة
حكوماتهم الباطلة كما ان كل امرئ منهم يشكو ايضاً « كما
تشكين » حيفاً او غبناً في ناحية من نواحي حياته او في امر من
امور دنياه .

لقد خدعت في امر زواجك كما بنخدع معظم البشر في
امورهم وغرتك مظاهر الغنى والجاه التي كان يتمتع بها زوجك
فرضيت به قريناً دون ان تحفلي بدرس صفاته واخلاقه وان
تبيني مقدار رجولته وحقيقته ادراكه
والغرور الذي كان سبب شقائك هو دائماً سبب شقاء
الناس وبلاياهم .

ان رفيقاتك اللواتي طالما حسدنك على زواجك هن اليوم
مثلك بالامس ما برحن مغرورات بالباطيل وبمظاهر الثروة
والجاه .

فلو تفقدن حياتك الزوجية وعرفن ما تقاسينه من العذاب
والالم بجانب زوجك الذي يحسدنك عليه . لكن يشفقن عليك
ويتعلمن من تجاربك القاسية هذه الامثلة الرائعة .
ان زوجاً فقيراً لكنه عامل شريف يكسب رزقه بعرق جبينه

وبعش بين عيلته بامن وسلام هو خير من عشرات الازواج
الاغنياء المتهكمين ومن الحكام المستبدين الفاجرين .

ليلي - انا الجانية على نفسي ايها الحكيم لأنني لم افكر عند زواجي
الآ بالجاه والمال والجمال مع ان صديقة من صديقات بيتنا المخلصات
انذرتي قبل اقترافي بزوجي كما انذرت والدي على مسمعي بالآ
اقع في حبائل هذا الرجل مها كان غنياً واسع الجاه والنفوذ لأنه
غير محمود السيرة والسريرة . فلم انتصح كما ان ابوي لم ينتصحا
ايضاً لأنهما كانا مثلي مغرورين بجاهه وماله وجماله .

والآن مها عنفت نفسي اولمت والدي فلا فائدة لي من
وراء ذلك . ولهذا السبب جئتك ايها الحكيم انشد راحة لا
لوماً وفرجاً لا تعنيفاً .

لقد عشت حتى الآن الى جانب زوجي ما ينيف على اثني
عشر عاماً كنت في خلاها يعلم الله صابرة صبر ابوب علي مساوئه
وشذوذه ومتحملة من سوء خلقه وفضاظة طباعه ما لا يقدر احد
على احتماله .

ولما ايقنت ان لا امل لي باصلاحه ولا راحة بقربه اخذت
افكر في هجره . وعزمت مراراً على ذلك . لكن اولادي
كانوا دائماً يحولوني عن عزمي لأنني لا أستطيع مغادرتهم ولا

أن أعيش بدونهم .

لقد عوّلت أن أهرب بهم الى حيث تلقيني يدُ الاقدار ولم
أخف من تحصيل معاشهم لأنني اينما وجدت أقدر أن اشتغل
وأقوم بمجاالتهم . لكنني أخاف هذه الشريعة الظالمة أن تنزعهم مني
وتردّهم الى حضن أبيهم القاسي الغاشم فينتقم منهم متى رأى نفسه
عاجزاً عن الانتقام مني .

هذه هي الفكرة الوحيدة التي أبقتني حتى الآن في

حظيرته .

ويزداد شجني عندما افكر ببعض النساء الخالعات اللواتي
يصرفن أموال أزواجهن بلا شفقة ولا رحمة ولا يهتممن بامر
تربية أولادهن ولا بتدبير شؤون بيوتهن ولا يكثرن إلا بتجميل
وجوههن وبهرجة لباسهن كما انه لا يحلو لهن إلا ارتياد الملاهي
والمراقص وارتكاب الموبقات .

ومع كل ما هنّ عليه من التبذير والاباحة فاني اراهنّ
الآمرات الناهيات في بيوتهنّ الموفورات الحب والكرامة من
أزواجهن . بينما المرأة الفاضلة الامينة المقتصدة الساهرة على
شؤون بيتها وراحة رجلها وأولادها غير محبوبة ولا مكرّمة من
بعليها ولا موفورة الراحة في بيتها ولا منشودة في المحافل والمراقص

هذا ما حداني على الاعتقاد بان الفضيلة لم تبق لها قيمة في
العصر العشرين .

لقد حاولت مراراً ان اسلك سلوكاً شائناً ليس فقط نكايه
بزوجي وانتقاماً لنفسي منه بل لأريه ايضاً اني متى شئت الزوغان
فلا أعدم عشاقاً ينشدونني ويرتمون على قدمي .

ولعله متى رأيي هكذا منشودة تتولد الغيرة في صدره
فتكسبني بعض محبته وعطفه .

وفضلاً عن ذلك ان الرجل الخليع السافط لا يستحق الا
امراً مثله ساقطة خالعة .

فاذا كنت حتى الآن لم ازل مترددة عن ارتكاب المعاصي
فليس ذلك خوفاً من زوجي ولا محافظة على شرفه وكرامته لأنه
ليس من اهل الشرف والكرامة . بل لانني منذ نشأتي لم أنعود
الاباحة ويعز عليّ الآن ان اتهمتك واخسر حسن سمعتي وطيب احدوثي
لكنه اذا ظل مثابراً على خيانتني وظلمي وسوء معاملتي فانه
يقودني حتماً الى ذلك وربما الى افطع من ذلك .

لاني لست جماداً كي لا اشعر ولا احس ولا احب ولا اغار
ولا ابغض ولا انتقم .

الحكيم - يا ليلي : ان اعترافك بخطأك وغرورك لما يجعلك ان

تستفيدي من تجارب الحياة ومشاكلها .
 ان الذي يقرّ بالخطأ يهّمه ان يتجنب الخطأ والذي يعترف
 بالغرور يسعى ليعتمد عن الغرور .
 تقولين انك تفسدين راحة لا لوماً وفرجاً لا تعنيفاً . فانا
 لست من اللائمين ولا من المعنفين والمحبذين المعاقبة بالقسوة في
 هذه الحياة ولا من المنذرين بنار الجحيم بعد الموت .
 ان شريعتي هي شريعة محبة وعفو .
 لا شريعة بغض وعقاب .
 ولهذا السبب احبّ ولا ابغض وأعفو ولا أنتقم لأنني أعلم
 حق العلم ان الخير هو نتيجة سلامة الجسم والروح كما ان الشر
 هو نتيجة علة من عللها .
 فكافة الاشرار تقوم عندي بمداواة علمهم ، لا بشدة
 عقابهم .

وأحب المؤمنين والمشككين لأن الايمان يجبر النفوس
 الكسيرة ويشدّد القلوب الضعيفة . والشك يثير الهمم والعزائم
 ويزيد الرغبة والطموح لاكتشاف مجاهل الكون ودرس
 حقائق الحياة .

لا مكان في جسدي لغير المحبة التي تغمر وجودي ووجداني
 فكما احب القريب احب الغريب - وكما احب النور احب
 الظلام - وكما احب الحضارة احب البداوة - وكما اعشق
 النضارة اعشق الذبول - وكما احب الحياة احب الموت .
 فمن يتفقد كتاب حياتي لا يقرأ في صفحاته غير الحب .

انني أعلم جيداً ان بعض علل النفس غير قابلة الشفاء كبعض
 علل الجسم بل لم تصل بعد مدارك الانسان ومعارفه الى شفائها .
 فوالحالة هذه لا قبل للناس الذين يعجزون عن التغلب عليها
 الا ان يتجنبوا ما استطاعوا الوقوع في حمايتها لا ان يبغضوا او
 ينتقموا من اولئك المرضى المساكين الراضين تحت انقالها .
 يا ليلي : تقولين انك عوّلت مراراً على هجر زوجك الذي
 عجزت عن شفاء علله النفسانية تجنباً من كثرة مشاكله ومن الوقوع
 في حماة مساوئه . لكنك تخافين الشريعة الظالمة التي تحرمك
 بنيك حتى يشبوا عن طوقهم وتبقيهم في حوزة أبيهم القاسي
 العاشم الذي لا يحسن تربيتهم ولا يعني بهم .
 وهم احب اليك من نفسك فلا تطيقين فراقهم ولا تتحملين
 العيش الى جانب زوجك الاثيم .

انك لست اول ضحية من ضحايا الشرائع . فالارض من
 كثرة الظلم والجور تتمخض كل يوم بالضحايا .
 لكن اللوم كل اللوم ليس على الشرائع الجائرة بل على
 الجنس البشري الذي ابتدعها . فهي عنوان جشعه وظلمه ودليل
 جهله واثمه .

فتى تحول عن عقليته الجاهلة الفاسدة تتحول شرائعه
 وتتعدل اديانه وديساتيره .

اما اليوم فنحن نعيش في عصر جاهل لا يعلم فيه المسترعون
 ما هو الناموس ! ولا يفقه القضاة ما هو الحق ! ولا الكهان ما
 هو الدين !

ومهما جارت الشرائع وكثرت الشرور والمآثم فلا تعتقدي
 ان الفضيلة تضع قيمتها ولا تحكمي عليها بالموت حكماً قاطعاً لمجرد
 نظرك بعض النساء الفاضلات مهضومات الحق في بيوتهن او في
 الهيئة الاجتماعية .

فاذا كان بعض الناس يتوددون للخالعات في المجالس
 والمتديات ويكرمون وفادتهن فلا تنخدعي بمظاهرهم الباطلة
 التي تعبر عن شهواتهم لا عن حقائقهم .

انهم في قلوبهم يقدسون الفضيلة ويحتقرون الرذيلة . ولهذا
السبب ان النساء الفاضلات لا يخسرن مطاقاً قيمتهن الادبية لا
تجاه الناس ولا بأعين ازواجهن مهما اساءوا معاملتهن وكانوا
متهتكين . وهكذا الرجال الافاضل مهما كانت نساؤهم
قاهرات او عاهرات فلا يُغَطُّ فضلهم .

اراك تعتقد من ان زوجك سيَجْرُك حتماً الى ارتكاب الاثم
والخيانة الزوجية اذا ظل مشابهاً على سلوكه الشائن وعلى سوء
معاملتك .

ان الضعف الانساني يحلل لك ان تبادل الشر بالشر لأنك
بشر من لحم ودم تغارين وتشعرين وتحبين وتبغضين . لكنك
تقدرين بقوة الارادة والتضحية ان تحوِّلي عوامل الغيرة والشعور
والحب والبغض الى ما يؤول لحيرك وخير الناس .

أليست الغيرة في البر والشعور مع البائس والحب للقريب
والغريب والبغض للخطيئة لا للخطيء كلها فضائل سامية تفيدك
وتفيد المجتمع الانساني ؟

اما الغيرة في ارتكاب الاثم والحب الشاذ والشعور بالانتقام
والبغض لكل من يسيء اليك او يعترضك او يحول دون اتمام رغباتك

فهي بنظري غيرة طائشة تعود بنا الى الحياة الوحشية لانها تقوي
 فينا الغرائز الهمجية التي تجعلنا اقرب الى الحيوان منا الى الانسان
 الراقى .

انني اعلم جيداً انك تحملت من زوجك ما لا يتحملة أحد .
 لكنني على الرغم من ذلك أرجو منك حباً بالتضحية وانكار الذات
 أن لا تفقدي نعمة الصبر قبل أن تجري كل الوسائل لأصلاحه
 لعلك تعثرين على وسيلة ناجعة ترده الى صوابه .

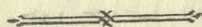
يا ليلى : ان الناس مختلفو الطباع والامزجة فمنهم من كان
 من طبيعته فاضلاً أو شريراً في حالتي اليسر والعسر . ومنهم
 من يبطره الغنى ويفسده المال . ومنهم من يقوده الفقر الى الشر
 والغنى الى البر . ومنهم من يؤدبه الفقر وتعلمه التجارب .
 وما أدراك ان زوجك اذا خسر ماله وأمسى فقيراً لا
 يؤدبه فقره ويصبح رجلاً نافعاً لنفسه ولك ولاولادك .

فكما ان الاشرار أبقى لهم وللناس بان يكونوا مجردين من
 اسلحتهم هكذا الاغنياء الفاسقون أبقى لهم وللانسانية بأن يتجردوا
 من أموالهم .

اذهي يا ليلى الى زوجك وعامله بالحكمة والرفق لا بالغت
 والنقد اللاذع . وأضربي صفحاً عن خسارته المال وعن مساوئه

الماضية لعله من الذين يؤدبهم الفقر ويردهم الى الصراط القويم .
 واذا خاب سعيك وظل عابثاً في فقره كما في غناه فعندئذ
 احبذ الطلاق ولا احبذ الخيانة .

اذهي اليه الآن - اذهبي متسلحة بالحكمة والصبر ومتأملّة
 بالخير لا بالويل . وعودي اليّ بعد حينٍ لا أعلم ماذا حدث لكِ
 وماذا جدّ عليك .



الفصل الثالث

الحكيم بلنقي بليلي في سرهرة راقصة

في احد فنادق بيروت

مضت ستة اشهر دون ان يرى الحكيم ليلي فظن انها ولا
شك حصلت على بعض الراحة في معيشتها البيتية . وابتدأت
تنفاهم وزوجها تفاهماً مقروناً بروح السلام والوئام .
وفي مساء يوم اقامت بعض السيدات البيروتيات حفلة
راقصة في فندق سان جورج الجميل القائم على شاطئ بيروت
الغربي تجاه ميناء الحصن « والكورنيلش » ينفق ريعها لمشروع
خيرى .

وما اكثر المشاريع الخيرية في هذه المدينة .
فدعي اليها الحكيم وذهب مدفوعاً بعاملين عامل الغيرة
على مشاريع البر وعامل الرغبة في استطلاع شوؤن المجتمع
الانساني ومراقبة حسناته وسيئاته .
ومن لا يخوض ميادين الاجتماع لا يتسنى له معرفة امراض

الاجتماع ليقوم بمكافحة نقائصه وعمله .

هناك شاهد الحكيم معظم رجال الحكومتين اللبنانية والافرنسية واعيان البلاد وصفوة تجارها وادبائها ومفكرها .

جاء معظمهم برفقة عقيلاتهم وفتياتهم . وكانوا كلهم رجالاً ونساءً يلبسون لباساً رسمياً لا بد منه في مثل هذه السهرة الارستوقراطية . ولم يشذ عن هذه القاعدة الا اولئك الذين كانت صدورهم تزدان بشاراتهم العسكرية الالامعة وبشارات جوقة الشرف .

ولما دقت الساعة العاشرة ليلاً عزفت الموسيقى الغربية مؤذنة بافتتاح الحفلة .

فابتدت حلقات الرقص على أنغام الجازبند الشجية . فانتحى الحكيم ناحية وجلس يتأمل في سيول المدينة الغربية التي تدفقت على الشرق واكتسحت حضارته واستعبدت أهله . وهذا بعض ما دونه في مذكراته عما لاحظته في تلك الحفلة الحافلة بالمع العائلات وبوجوه القوم وكبار الحكام الوطنيين والافرنج .

قال : لا جدال ان هذه الحفلة تمتاز بالآبهة والفخامة وبكثرة البذخ والتبذير والبهرجة والتأنق لأنها تجمع السلطات الثلاث

التي تحكم بني الانسان منذ أقدم العهود حتى الآن .
 ألا وهي سلطة الحكم وسلطة المال وسلطة الجمال .

لقد شاهدت سلاطين الحكم وملوك المال يخاضعون
 سلطانات الجمال ويتودّدون اليهنّ وينحنون امامهنّ ورأيت
 بعضهم يلشّمون اناملهنّ الناعمة كما سمعت البعض الآخر يغدقون
 عليهنّ آيات الثناء والاطراء ويشبّبون بظرفهنّ وجمالهنّ الفتان .
 لعمري ان سلطة الجمال كانت في تلك الليلة نفوق سلطتي
 الحكم والمال بقوة سلطانها لانها كانت اشدّ منهما وقعا في الاعين
 واكثر منهما حكماً على القلوب . وكان الجميع يدينون لاوامرها
 ويخضعون لنواهيها .

لم اتبين في تلك الحفلة الحافلة اثرأ عربياً لبنانياً في ارض
 لبنانية عربية .

كانت الموسيقى كلها افرنجية كما كان الرقص افرنجياً ايضاً
 وكانت المشروبات المتعددة والمأكّل المتنوعة والحلويات المختلفة
 والملابس الفاخرة والفندق وشكل بنائه وهندسته ونقوشه واثاثه
 ورياشه واصحابه وخدمه وحشمه حتى اللفة التي كان يتسامر بها
 المدعوون كلها كانت افرنجية بحتة . ولو لم اكن اسمع من حين
 الى آخر بعض الكلمات العربية التي كان يمزجها بعضهم في سياق

احاديثهم في لغة الافرنج لكنك تخيلت نفسي انني جالس في
حفلة راقصة في باريس لا في بيروت .

فقلت في نفسي : ان المغلوب ليس فقط يخضع للغالب في
قوانينه واحكامه بل يقلده ايضاً في لغته وعادته وحسناته وسيئاته
كما يقلد الضعفاء الاقوياء والفقراء الاغنياء .

ان الناس من طبيعتهم يخضعون للقوة المسيطرة عليهم
ويقتفون آثارها ويتلمسون خطواتها كأن القوة كلها حسنات
والضعف كله سيئات .

لكن الرجل اللبيب المدرك حقيقة الحياة الاجتماعية والواقف
على توارخ الامم والشعوب والمدقق في اسباب نهضاتها وسقوطها
يعلم تمام العلم ان القوة والضعف يتعادلان بالحسنات والسيئات .
فالامة الرشيدة هي الامة التي تسعى وراء اكتساب حسنات
القوة دون ان تتخلي عن حسنات الضعف . لأن التخلي عنها
يضعف الامة القويّة كما يزيد الضعيفة ضعفاً .

في تلك الليلة لعبت الشهبانيا دوراً خطيراً وكانت تشغل
المقام الاول بين المشروبات الروحية لأنني كنت كيفما وجهت
نظري في قاعة الرقص الكبرى اراها موضوعة على اغلب الموائد

المنتشرة هناك . وكان يليها الوسي مع السودا ثم الكونياك
والكوكتيل والشرتراز والبندكتين وخلافهم .
اما النبيذ اللبناني والعرق اللبناني فلم ارَ لها اثرأ .
فقلت في نفسي : مسكين لبنان ، لا بل مسكين هذا
الشرق العربي الذي لم يتخلَّ فقط عن استقلاله بل اخذ يتخلى
عن ثروته وعاداته واخلاقه وتقاليده قومه .
ان معظم الشرقيين لا يعرفون فضيلة الاقتصاد ولا الوطنية
الصحيحة . انهم ينفقون بلا حساب ويعيشون غير مبالين بوطنهم
ولا محافظين على ثرواتهم وصناعاتهم ولا على نتائج ارضهم .
بينما الغربيون يبعدون اوطانهم ويحافظون على منتوجاتهم
ولا يستوردون من ارض الاغيار الا ما لا وجود له في بلادهم
ويكتفون عند حلول الازمات بما هو موجود فيها .
فما بالناس لا نتعلم منهم هذه الفضائل كما نتعلم الرقص والاباحة ؟

وفيما هو غائص في هذا التفكير وعينه شاخصتان في
اسراب المتخاصرين مرت بجانبه عادة على جانب عظيم من
الجمال والتجمل ثراقص شاباً أنيقاً جذاباً تبدو في لحاظها كما في
لحاظه علام الحب المتبادل .

فقطعت عليه مجرى تفكيره لأنه اشتبه بعرفتها فأخذ
يسارقها النظر ويفتقد خطواتها ويتبين ملاحها الى أن تحقق أنها
ليلي .

رأى تلك المرأة التي كان يحسبها مثال الحشمة والأدب
والظرف عارية الصدر والكتفين بارزة النهدين لابسة ثوباً
حريوياً شفافاً لا يستر جسدها إلا كما يستر الزجاج نور الشمس
و كانت كاحلة العينين شديدة التبرُّج والخضاب يفوح من
أردانها شذا الطيوب والمساحيق ومن لحاظها رائحة الحب والغرام .
أجل لقد شاهدها تناجي فتاها الذي كانت تراقصه مناجاة
المولدين وتبسم له بسمات المتيمين التي لا تخفى على أحد .

فقال في نفسه : أهذه ليلي التي عرفتها تقدّس الواجبات
الزوجية ونقبّح الخيانة والتهتك ؟

أهذه ليلي الحكيمة الفاضلة التي كانت تن من جور زوجها
وعسفه ومن اباحتها وسكره ؟

أهذه ليلي التي تحبّ أطفالها كنفسها وتضحّي بكل غالٍ
ورخيص من أجلهم .

أهذه ليلي الوالدة الشفيق الحنون ؟

أهذه ليلي التي كانت تصرّح علانية بأنها تعبد الله وأولادها

ولولاهم لما كانت نساكن زوجها الخليع ؟
 كيف تجرأت ان تترك اطفالها الذين هم بحاجة الى عنايتها
 طيلة هذه الليلة ؟ حالة كونها تعلم حق العلم ان زوجها لا يرجع
 الى البيت قبل منتصف الليل واذا بكر يوماً فلا يعود الا
 خمران لا يبي ولا يستوي . ولا يتمكن من الاعتناء باطفاله !
 أفلا تفكر ايضاً انه عندما لا يراها في البيت ربما تسول
 له نفسه الانتقام فيفتق له السكر بان يثار من هؤلاء الاطفال
 الابرياء .

واطوار السكر من اطوار الجنون !
 ماذا جري لها اذن ؟ ومن غيرها وقسى قلبها على فلذات
 كبدها ؟

هل وقعت بشرك الحب وعلقت هذا الشاب فملك فؤادها
 وحواسها وعواطفها ؟

وهل عاطفة العشق اقوى من عاطفة الامومة ؟ اجل كما ان
 السكر يفقد المرء توازنه العقلي هكذا العشق يفقده العاطفة
 الابوية .

فكم امرأة تضحي ببنيتها على مذبح غرامها وكم امرئ
 يضحي بهم على مذبح شهواته ؟

ثم تأمل الحكيم في الجموع الغفيرة التي كانت تنزاحم على
الشراب والرقص في تلك القاعة الفسيحة . وقال في نفسه :
كم ههنا من أمّ تنزع لاهيةً عن بنيتها وكم من أبٍ يتخطّر
لاهيًا عن واجباته !

X دقت الساعة الثانية بعد نصف الليل و كانت الخمرة قد
لعبت بروؤوس معظم المتخاصمين الذين كانت اصواتهم
كارجلهم ولحاظهم وسائر اعضاءهم تتبع انغام «الجازبند» .
وكانت ليلى لا تزال ساهرة تراقص فتاها وتداعبه وتشاركه
بالمرح والغناء واللهو والشراب وهي لا تبالي كأنها ليست ذات
بعل ولا أمّ اطفال يحتاجون الى عنايتها .

وكانت عندما تمرّ من امامي تغضّ طرفها عني دون ان
تكلمني كأن ليس بيني وبينها معرفة او كأنها تريد ان تنكتم
عني كي لا اعرفها لأنها لم تعود سابقاً ان تسلك هذه الطريق
فأبى عليها حيائها بان اشاهدها على تلك الحالة المريبة . وهي لم
تفقد حياءها بعد .

ومن يفقد حياءه يفقد كل شيء .

وقبل ان انصرف فكّرت بمخاطبتها فترثت قليلا الى ان

مررت بجاني . فهمست باذنها قائلاً : ارعوي يا ليلى واذكري
 صغارك وامر نفسك واقبلي نصيحة رجل لا يود لك الا الخير .
 فلما سمعت كلامي ملكها الخجل فجمدت مكانها دون ان
 تنبس بنت شفة وذهب عنها بسطها وانتقلت بلحظة من المرح
 واللهو الى الاضطراب وقلق البال .

فشعر رفيقها بانقلابها السريع وقام يلاطفها ويستعطفها
 مغدقا عليها آيات حبه وشغفه الى ان سرى عنها قليلاً ثم اخذها
 بذراعيه وبعدا عني .

فتزكيتها ورجعت الى البيت .



الفصل الرابع

سلمى تزور الحكيم وتنص عليه في سياق حديثها بعض شذوذ
جارتها ليلي وتستنجد به لانقاذها من المفاسد

وبعد تلك السهرة جال في خاطر الحكيم ان ليلي لا بد ان
تزوره قريباً معترفة اليه بخطاياها وطالبةً معونته الادبية لارشادها
وصيانتها من المفاسد .

لكنه بعد مرور بضعة اسابيع دون ان يراها خاب ظنه بها
وفي صباح يوم بينما كان يتمشى في حديقة بيته المشرقة على
الجادة العمومية ابصر سلمى آتية لزيارته . فرحب بها كثيراً .
ثم اخذا يتمشيان معاً بين الازهار والرياحين .

فقات سلمى : يظهر لي انك راغب في حديثك كل الرغبة
لأنني ارقب شدة اعتنائك بها ظاهراً في اتقانها وتنوع ازهارها
الجميلة التي تبهج القلب والبصر .

فقال لها الحكيم : اجل يا سلمى انني لست فقط راغباً

بحدیقتی بل احبها حباً جمّاً واحب اشجارها وازهارها واعشابها .
 واحب الطيور والعصافير التي تنقل على افنانها والنحل الذي
 يحني عسله من اثمارها والهوام والحشرات التي تقتات من ترابها
 ومن اعشابها .

واحب النمل السارح في ارجائها واحب مواتها وكل حياة
 تنبجس منها وتنمو وتذبل فيها . لأنني اصرف كل يوم بعض
 وقتي متنقلاً بين خمائلها ومستريحاً تحت ظلالها .

انها والحق يقال مكان نزهتي ودرسي وتأملی . ولا اغالي
 اذا قلت لك اني اجمع فيها النقيضين فارتاح من عناء العمل
 بينما يداي تعملان بلا انقطاع في اغراسها وذهنی يشتغل في تفقد
 نباتها .

نعالي معي الآن وانظري القرنفل الجميل والورود المتنوعة
 الذكية والبنفسج والسوسن والرياحين المختلفة المعطرة . أفلا
 ينشرح صدرك لـ: انظرها الفتان ؟

اقظني ما شئت منها واشكري العناية على خلقها .
 ان حدیقتي یا سلمی هي عندي بمثابة عالم صغير تشغل عقلي
 وجسدي . فكما جلت فيها ترينني اتفقد جمادها وحيوانها ونباتها
 متعطشاً الى معرفة ما يحدث ويحري في كل نفحة من نفحاتها .

فأشعر كأنني اتفقد المعمور بأسره .

ولست حديقتي وحدها هي عالم صغير في نظري بل انت
وانا وكل كائن حي معها كان حقيراً هو عالم صغير ايضاً فمن
سهر غوره وخبر سرّ كيانه وتفقد خفاياه يتفقد جميع اسرار
الكون .

تعالى معي وادرسني قليلاً في كتاب الطبيعة . انه لعمرى
كتاب مدّش رائع يصرف العالم المدقق عمره ولا يستوعب
صفحة من صفحاته .

فكلما شئت ان تتلقني امثلة مفيدة في الحياة او ان تتفقدي
سرّاً من اسرار الوجود اقرّاي في هذا الكتاب العجيب تري كل
ما يلذك وبفذك .

ان كتاب الطبيعة يا سلمى هو كتاب الصراحة والجرأة
والحقائق العارية فترين فيه الحياة الدنيا كما هي لا كما يصوّرها
لك رجال الخيال والاهام .

ولهذا السبب انك لا تجددين اثرراً للدهاء والمصانعة في
كتاب الطبيعة ولا تلمسين فيه السياسة الكاذبة والاضاليل
الملققة ولا الاعتقادات السخيفة والشرائع المعقّدة .
انه كتاب الواقع وكفى .

واما كتب الناس التي ملأت الكون في هذا العصر
وتكدست بالملايين في دور العلم والمكاتب فمعظمها مصطنع
يدل على مخافة منشئها وهرائهم وعلى ضلالهم وجهلهم .
الحق اقول لك لا يروقي منها الا النزر اليسير المأخوذ
عن كتاب الطبيعة وهو وحده بنظري الكتاب الحقيقي الذي لا
تشوبه شائبة .

تعالى معي وتأمل في هذه الوحدة البيضاء الجميلة الممتلئة من
الاقمار البديعة والاكمام الباسمة للحياة .

لقد كانت منذ ايام عارية من الورق والزهر فاين كانت
هذه الاوراق والازهار ؟

انها ولا شك كانت تتمخض في احشاء الوردة كما كنا
مثلها تتمخض في احشاء امهانا . ومرّت قبل بروزها على كل
الاطوار التي مررنا عليها قبل ولادتنا .

وستعيش وتموت مثلنا لكنها اقصر عمراً منا كما نحن اقصر
اعماراً من غيرنا من احياء الطبيعة .

فاذا جئنا الان نتساءل اين كنا وكانت هذه الازهار قبل
ان نتكوّن في احشاء الامهات ؟ ان العلم الذي وصلنا اليه يبيننا
اننا كنا اجساماً بسيطة مؤلفة من ذرات وخلايا وكهارب قابلة

التطور والاندماج . وقد تألفت منها جميع احياء الارض المختلفة
الاشكال والانواع .

ولكن اذا سألنا كيف تولدت هذه الخلايا والكهارب وما
هو مصدر حياتها ؟

فماذا يخبئنا العلم ؟

ان العلم لا يزال عاجزاً عن ادراك هذه الحقيقة الغامضة
ولهذا السبب ما برح العقل البشري حتى الآن يتمكن تكهنات
للوصول الى معرفتها .

لأن كل امرئ له ملء الحق بان ينشد الحقيقة الضائعة
وان . يتخيلها في ذهنه كما يشاء ويتكهن في سر وجودها
كما يوحي اليه عقله . لان الحقائق المجهولة هي ميدان لكل مفكر
وباحث . ولا يظفر بها العقل البشري الا عن طريق التكهنات
المختلفة والمباحث الجريئة .

ان باب الاجتهاد مفتوح على مصراعيه في حقل هذا الدون
الواسع فما علينا الا ان نثابر على الدرس والبحث لنزداد علماً
ومعرفة في حقيقة الحياة وحل اسرارها الغامضة وقضاياها المعقدة ؟
ومن الخطأ الفادح والجهل المطبق بأن نعتقد انه يوجد
شريعة سماوية او ارضية لها ملء الحق بان تقيد افكارنا وتوصد

باب البحث والمعرفة في وجوهنا .

ربما اكون قد ازعجتك يا سلمى بمحدثي الجاف عن الطبيعة
واسرارها . لأن كثرة الكلام في هذا الموضوع لمن الامور
الازعجة المملة لمعظم الرجال فكيف للسيدات . فأستريحك عذراً
عما سببته لك من السامة وثقي انني دائماً عندما اكون في حضرة
الناس احاول جهدي لاختفاء هذه النزعة الفلسفية التي تغمر دماغي
كي لا اخبرهم بمحدثي . لكنها في بعض الاحيان تثور علي كما
ثارت الآن فتغلبني على امري وتملك لبي ومشاعري وتنفذ الى
قرارة ذهني وتسلط على حواسي ومخيلتي وتستأثر بعقلي ولساني
فلا اعود افكر الا من وراء الهامها ولا اتحدث الا من نتاج
وحياها . وهذا ما حدث لي الآن

سلمى - انني جد مقبضة بمحدثك اللذيذ المفعم بالحكمة والفائدة . ولا
اغالي اذا قلت لك انني كلما رن صوتك في اذني تنطمع كل كلمة
من كلامك في ذهني فاشعر عندما تحدثني أن حديثاً علوياً نزل
علي كما نزل الوحي على الانبياء .

الحكيم - لم اكلمك بلغة الوحي والنبوة يا سلمى فانا اجهل هذه اللغة
ولم احديثك حديثاً علوياً بل حديثاً أرضياً لأنني لا ازال عاجزاً
عن ادراك حقائق الملاء الادنى فكيف بالملاء الاعلى .

لقد قيل الويل لمن تأتي الشكوك عن يده . اما انا فأقول :
 الويل لمن يعلم الناس ما لا يعلمه ويجعلهم يؤمنون بما لا
 يؤمن . ويعتقدون بما لا يعتقد .

الويل للذين يدعون الى الفضيلة ويقدمون الرذيلة في قلوبهم
 والويل كل الويل للرأيين والمخاتلين والمتاجرين بالله وعباده
 والآل ما لنا وهذا الحديث فلندع جانباً باطل الناس
 وخز عيالاتهم وتعالى معي لنجلس على هذا المقعد الخشبي القائم
 تحت ظلال هذه السنديانة الجبارة .

أما شعرت بالنعيب من كثرة الوقوف والمشى ؟
 تعالي ومتعي الطرف بمنظرها الفتان . وتأنلي في الطيور
 والعصافير المتنقلة على افنانها . والهوام والحشرات السارحة على
 اغصانها .

تعالي اليها انها لا ترد طالب راحة ولا ناشد غذاء .
 اجل يا سلمى ان الاشجار جميعها تلقي علينا امثلة رائعة في
 الحلم والكرم وحب التضحية لأنها كلها لا تحجب ظلها ولا
 خيرها عن أحد . بينما معظم الناس لا يكتفون بأن يجبوا
 خيراتهم عن سواهم بل يسعون لايقاع الضرر بغيرهم .
 تعالي وتمتعي بظلها المتعش ونسيمها العليل .

وبعد ان جلسا هناك قال لها الحكيم :

كيف حالك يا سلمى وحال زوجك ؟

قالت : اننا بخير وسعادة ايها الحكيم .

فأجابها : انني مبتهج جد الابتهاج بحياتك الزوجية الهنيئة
التي تدل على طيب عنصرك وعنصر زوجك الكريم المزدان بحسن
الخلق والأدب الجم كما تدل أيضاً على كمال صفاتك ورواء ظرفك
وجمال نفسك .

سلمى - اجل ايها الحكيم انني سعيدة بزواجي وعائشة على اتم وفاق
برفقة الرجل الذي اختصتني به العناية . لأن المحبة التي هي اساس
السعادة الزوجية متبادلة بيننا والاخلاق متقاربة ايضاً .

× وكل منا يعلم ماله وما عليه فلا يتعدى حقوقه كما انه لا
يتوانى بأمر واجباته . فلا شيء يدعو الى الخصام وسوء التفاهم
فيما بيننا .

ومما زاد عيشنا صفاءً وملاً حياتنا سعادةً وهنا طفلاً جميلاً
رزقناه منذ ستة اشهر فهو والحق يتمال منحة من منح الطبيعة التي
لا تعدلها كنوز الارض .

فكلما ضمته الى صدري وارضعته اشعر أنني ضمنت الدنيا
باسرها . وكلما تصبّحت بوجهه المشرق وسمعت مناغاته الملائكية

شاهدت وابتساماته العلوية اشعر أنني ملكت السعادتين سعادة الدنيا والآخرة .

انه كثير الشبه بآبيه في حر كانه وسكناته وتقاطيع وجهه
ويبدو لي انه سيكون مثله ايضاً بحسن خلقه وهناءة عيشه
ورقة طباعه . لأنه كثير الهدوء والابتسام لا يبكي الا نادراً
وذلك عندما اسهو عن ميعاد رضاعته . فعندئذ يعبر عن شعوره
بالجوع بلغة البكاء التي لا يحسن غيرها .

هو سلوى امه وحشاشتها وأمل آبيه وفلذة كبده .

الحكيم - ان الاطفال يأسلمى هم بهجة الحياة وربيع القلوب
وملائكة الارض وجنانها .

هم الصلة المتينة بين الازواج والعروة الوثقى في تأسيس
العائلة البشرية والرابطة الوحيدة التي تربط حاضـر الجنس البشري
بماضيه وتوأم من مستقبله .

فلا شيء في هذا الوجود ادعى للغبطة من مشاهدة الاطفال
على اذرع آبائهم أو على صدور امهاتهم . ولا شيء ابهج من
مرآهم يتناغون ويتكلمون ويصخبون ويلعبون .

فمن يكره الاطفال يكره البشر ويكره الله فجيلة البشر
في صدورهم ونفحة الله في جباههم .

وقد أحسن الشاعر العربي بقوله :

وانما أولادنا بعدنا اكبادنا تمشي على الارض
ان عينيّ تحنّ لرأى الاطفال وقلبي يوقص طرباً عندما
الاعبهم واسمع اصواتهم الساحرة ونفسي تتعظ عندما اراهم يفضون
ويرضون في لحظة واحدة كما يسكون ويتسمون في آن واحد .
انهم سريعو النسيان لا يحملون في قلوبهم بغضاً ولا انتقاماً .
وما أجل النسيان الذي يبرأ القلب من داء حقه وبغضه .
وهم ايضاً انقياء الضمير وطاهرو القلب لا يعبرون عن
شعورهم الاّ بمنطق البساطة البريّة .

وما أجل هذه البساطة الصادرة عن الطهارة والنقاوة .
انهم صغار ضعفاء يحتاجون الى كثير من العناية والالتفات
ولا ينشأون بدون معوان يعولهم ويقوم باودهم .
فمن اهمّ واجبات الاباء والامهات واجب الاعتناء باطفالهم
والسهر على تربيتهم . فهو في نظري واجب لازب من اقدس
واجبات الانسان على الارض .
فمن يهمل هذه الواجبات يرتكب جناية لا تتفرد تجاه
الانسانية .

سلمى - انني ارتأي رأيك ايها الحكيم واتعجب كيف يقدر بعض

الآباء والامهات أن يهملوا أمر اطفالهم . بينما أنا أشعر ان
واجباتي نحو طفلي هي قبل كل الواجبات .

كيف لا وهو قطعة من نفسي بل هو اعز من نفسي فلا
يهنأ لي عيش الآ بهنائه . ولا تصفو حياتي الا بصفاء حياته .
وهكذا زوجي يشمر شعوري فلا شيء عنده اعز من
ولده ولا أمر يهيمه في هذا الوجود اكثر من امره .

اما جارتني ليلي فقد كانت فيما مضى تهتم بامر اطفالها وتعني
بتدبير منزلها لكنها اليوم امست لا تحفل الا بملاذاتها ولا تفكر
الا بزيئتها وتبرجها .

وعز علي ان اخبرك انها فلما ترى في بيتها بل تظل متنقلة
في امكنة اللهو والقصف غير حافلة بواجب الزوجة وواجب
الام .

انني لا ادري اي شيطان علقها وقادها الى هذه الطريق
العوجاء حتى امست لا تشفق على صغارها الابرياء .

ان قلبي يقطر دما كلما شاهدتهم وحدهم يروحون ويحيئون
في فناء الدار باثوابهم القذرة البالية وعلائم المسكنة والذل منطبعة
على وجوههم . فكأنهم ايتام لا اب لهم ولا ام يعتنيان بامر
طعامهم ولباسهم ونظافة ابدانهم .

لقد نصحت ليلي مراراً ان تردع عن غيها وتنتبه الى
 صغارها فلم ترعوي لنصحي ولم تحفل بكلامي .
 وقد قالت لي يوماً : انني افعل كل ذلك انتقاماً من زوجي
 الخائن المتهتك الذي لم اره يوماً واحداً يهتم بزوجه واولاده .
 انه رجل خالي الاحساس والشعور لا يجب غير ذاته ولا ينشد
 غير ملذاته .

اما كفاني اثنا عشر عاماً ضحيت بها في سبيله لعله يتعظ فلم
 يزدد الا اثماً .

قولي لي بحقك اما كفاني ما قاسيت من فظاظة طباعه
 وسوء تصرفه وما تحمّلت من ضروب الشقاء وسوء المعاملة !
 أما ان لي ان اتعلم منه محبة الذات واسعى وراء لذتي كما
 يسعى وراء لذته !

فهل من العدل ان اضحيّ بحياتي كلها من اجل رجل لا يفهم
 معنى التضحية واحافظ على شرفه وعرضه وهو لا يفقه معنى
 الشرف والعرض .

فأجبتها : انك بعملك هذا لا تتأرين من زوجك بل من
 نفسك ومن هؤلاء الاطفال الابرياء الذين صحّ بهم قول
 الكتاب :

الآباء يأكلون الحصرم والابناء يضرسون .
 لقد نصحتها كثيراً ولكن بلا جدوى . وكلما اظهرت لها
 خطأها أو زدت ارشادها تزداد تعنتاً وامعاناً في ضروب اللهو
 والفجور لأنها أمست كالصخر الاصم لا تحس ولا تسمع
 وكالفاقد الشعور لا تستحي ولا تتجمل .

ومما يدهشني ايها الحكيم انني اعرف ليلى من مدة طويلة .
 اعرفها امّا شفيقة وامرأة حكيمة طاهرة القلب والضمير . فلا
 اعلم كيف خسرت بين ليلة وضحاها شفقتها وحنانها وحكمتها
 وطهارة قلبها .

فكيف تخوّل لها نفسها ترك صغارها من الفجر الى النجر
 وليس عندهم من يعتني بامرهم !

وكثيراً ما سمعت اطفالها يتشامتون ويتضاربون ويتراشقون
 بالكلام البذيء الذي لا ينطق به الا السفلاء . ولا من يزدعهم
 عن الشتيمة والبذاءة .

وكثيراً ما سمعتهم ايضاً يصرخون صراخاً اليماً فاهرع اليهم
 سائلة عن سبب بكائهم فكانوا غالباً يجيبون انهم جائعون وليس
 لديهم ما يأكلون . فينفطر قلبي اسى عليهم . وفي اكثر الاحيان
 أجلبهم الى بيتي وأغسلهم وأطعمهم والتفت اليهم كلما سنع لي

الوقت . ولكن هذا لا يكفي لأنهم بحاجة الى أمّ تعني دائماً بهم
وتظل بقرينهم .

تأمل ايها الحكيم ماذا حدث البارحة : ان طفلها الاصغر
وعمره ثلاث سنوات كان يلعب وحده في الشارع . ولولا لطف
الله لذهب ضحية السيارة .

سمعت صراخه فهروا مسرعةً اليه وعندما رأيته بيد
السائق الذي انتشله من بين الدواليب مخدّشاً دامياً انفطر قلبي عليه
اما السائق فذوق نظره عليّ قال لي بصوت حاد : هل
هذا الطفل يتيم الابوين وليس له احد يعتني بامره ؟ فكيف
يترك في شوارع المدينة المكتظة بالحافلات والسيارات ؟
فاخذت الولد منه دون ان اجيبه على كلامه وذهبت الى البيت
فضمّدت جراحه وآسيته ثم اعطيته بعض اللعب ليسلو بها أمله .
ولما عادت والدته في المساء اخبرتها عما جرى . فبدلاً من
ان تؤثب نفسها على قصورها واهمالها امر صغارها قامت تضرب
طفلها الجريح ضرباً مبرحاً وتزجره زجراً عنيفاً لذهابه الى
الشارع . فطفق يبكي بكاءً مرّاً ويتطلّع اليّ بعينيه المغرورقتين
بالدموع كأنه يريد ان يستنجد بي على عسف امه .
فعندئذ صحت بها : كفي يا ليلي ان هذا الطفل لا يستحق

ضربك وتعنيفك لأنك انت المخطئة لأهمالك امر اطفالك وعدم
اعتنائك بهم .

ان العدل يقضي عليك لعدم قيامك بواجبات الامومة ولا
يقضي على طفل صغير لا يفهم الخير من الشر .

فاشأزت من كلامي واجابتي بحدة وغضب : انا اعرف
واجباتي ولست بحاجة الى نصائحك وارشادك ولا اريد ان
تدخلني بأمرى كما لا أ تدخل بأمرك لأن من يتدخل بما لا يعنيه
يسمع ما لا يرضيه .

لقد افهمتي ذلك بغلاظة مقرونة بالقحة والفجور وغاب
عنها انني جارتها المحبة الصادقة التي تمنى لها الخير . فهل لك ان
تمد يدك اليها الحكيم وترممها بعين حكمتك وعطفك ؟ لعلك
تردعها عن الاثم والغواية رحمة بها وباطفالها الابرياء .

الحكيم - لقد رايتني سلوك ليلى منذ ثلاثة اشهر يوم اقيمتها في سهرة
راقصة في أحد فنادق المدينة مع شاب في مقتبل العمر . لم تراقص
سواه تلك الليلة ولم تحفل الا به .

وكانت في كل حر كاتها وسكناتها مبعث الشكوك .
فأحببت قبل انصرافي ان اهمس باذنها بعض الملاحظات واذكرها
بواجباتها الزوجية وبصغارها معتقداً انها تقبل نصيحتي كما

كنت منتظراً ان تزورني في اليوم الثاني أسفة عما بدر منها .
لكنها حتى الآن لم تفعل .

لقد قالت لك : انها لم تسلك طريق الغواية الانكائية بزوجها
لا حباً بالغواية . فهل تعتقد ان هذا يبرر عملها ويجعلها مرتاحة
الضمير ؟

فاذا سرق بيتك فهل يجوز ان تسرق بيت جارك ؟
واذا كذب احد عليك او خانك بعض اصدقائك او احد
من اهلك فهل تستيحيين لنفسك الكذب والخيانة ؟
لقد نطق الحق عندما قلت ليلى انها بسلو كلها الشائن
لا تنأر من زوجها بل من نفسها ومن اطفالها الابرياء وقد تمثلت
بقول الكتاب :

الآباء يا كلون الحصرم والابناء يضرسون .
اجل يا سلمى ما زالت الشريعة الانسانية ناقصة من كل
وجوها لا نزال نرى الآباء يا كلون الحصرم والابناء يضرسون
ولكن متى كملت الشريعة واستوت الانظمة والقوانين
واصبحت الانسانية مجموعة شعوب متحدة تؤمن بالحق لا بالقوة
وتحفل باللب دون القشور وتسهر على تربية النشء وتحمل
مقدراتهم فعندئذ لا يضرس الا كل الحصرم .

ان العدل الالهي لا يعاقب احداً على خطيئة غيره فاذا كان
الانسان وُلد بالخطيئة كما يقول الكتاب او بالنعمة الدائمة كما
يقول بعض المتصوفين فهو غير مسؤول عن ولادته التي لم يكن
بها مخيراً بل مسيراً . ولا يحمل تبعة الخطيئة الاصلية كما لا
يستحق ثواب النعمة الدائمة .

انه مسؤول عن عمله واذا لم يكن مخيراً في صنع الخير أو
الشر فيجب ان لا يعاقب ولا ان يجازى عليهما .

ان الضمير والوجدان يقضيان على المرء بأن يساعد ابناء
جنسه وان يكون محباً للحق طموحاً لا كتساب العلم والفضيلة
ولكن ليس علينا ان نطلب منه ان يجترح المعجزات .

سأجربُ أن التقي بليلى في القريب العاجل واخاطبها
بصراحة عن خطاياها المبين في مقابلة الاثم بالاثم . لأن الشر لا
يخمد الشر بل يزيده اضطراباً .

فاذا شاءت ان تنصر على الرذيلة فلتتسلح بسلاح الفضيلة .
والافهي الجانية على نفسها .

وما على الرسول الاّ البلاغ .

الفصل الخامس

الحكيم يتأمل في شذوذ الآباء والامهات وتعاسة اطفالهم
ويبحث في قضية تربية البنين وامر تثقيفهم

وبعد ذهاب سلمى دخل الحكيم الى مكتبه واخذ يتأمل في
شذوذ الآباء والامهات وتعاسة اطفالهم .

ثم أخذ قصاصة من الورق وكتب عليها ما يلي :
ان افظع الجرائم البشرية هي جريمة الآباء والامهات الذين
لا يعبأون بغير شهواتهم وملذاتهم ولا يكثرثون لحاجات اطفالهم
ولا لأمور تهذيبهم وتثقيفهم .

وافظع الفظائع ان تقف الانسانية تجاه هذه الجرائم وقوف
المتفرّج دون ان تمدّ يدها لاحتضان هؤلاء الاطفال الابرياء
الذين يقاسون مضض الشقاء والتعاسة ولا ذنب لهم سوى انهم
ولدوا مرغمين من هؤلاء الاشرار الذين اعتمدتهم الاباطيل ونزعت
الرحمة والحنان من قلوبهم .

لقد جاءت سلمى اليوم نقصاً عليّ بعض مغامرات جارتها
ليلي وزوجها وشذوذهما وكثرة انهما كهما في الملاهي والموبقات وعدم

الاعتناء باطفالها الابرياء ولا القيام بجزء يسير من واجباتهما
الابوية نحوهم .

لقد مثلت امامي حالة هؤلاء الصغار التعساء تمثيلاً مؤلماً
واخبرتني انهم غالباً يُتركون وحدهم من الفجر الى النجر بلا
معوانٍ يعولهم ويعتني بامر طعامهم ولباسهم .
ان حالتهم تستدعي الشفقة والرحمة ولكن لا شفقة ولا رحمة
في قلوب الآباء والامهات الذين يبدون شهواتهم .
لأن من يعبد شهواته يتحجر قلبه ويخسر حنانه وتُفسد
اخلاقه .

*** *

كلما عدت الى نفسي واخذت اتأمل في محيطي ودخائل
كثيرين من اصدقائي ومعارفي واسرار حياتهم العائلية ومجتمعاتهم
الخاصة اتأثر كثيراً لانحراف معظمهم عن واجباتهم الابوية من
جراًء انهما كههم بالمقامرة والموبقات والامور الدنيوية الباطلة .
لقد سهرت البارحة في بيت أحد الاصدقاء وكان عنده
نخبة من السيدات والسادة ينتمون الى ألمع الاسر الكريمة في
هذه المدينة .

فبعد ان تحدثوا قليلاً عن الحرب الايطالية الحبشية وعن

السياسة المحلية المرتكزة فقط على الوظيفة ورجال الوظائف
التف جميعهم حول المائدة الخضراء وابتعدوا في المقامرة .
وكان سيد الدار وسيدته يترأس كل منهما فئة من اللاعبين
وبقيت وحدي بينهم جالسا أتأمل بهم .

مضت ثلاث ساعات لم اسمع منهم حديثا سوى حديث
الربح والخسارة ومناورات « البوكر » .
قضيت السهرة متأملا حركاتهم وسكناتهم ليتسنى لي
درس نفسياتهم وتفقد نزعاتهم وهم يلعبون .
رأيتهم يتناضلون على المائدة الخضراء كأنهم اعداء في
ساحة الوغى .
وكان الورق الذي نظرته يتبدل كل فترة في يدي كل
منهم كأنه عتاد حربهم واداة نضالهم .
وكان كلما تبدل تبيض وجوه وتسود وجوه .
هذا الورق الناعم الذي لا يخدش انعم الانامل يفعل بالناس
ما لا تفعله افطع الحروب الدامية والمدافع الحاصدة .
ان الحروب مهما اشتدت وطأتها لا بد ان يخمد سعيها
ويرتاح الناس من شرورها . اما حروب الميسر في هذا الجيل فهي

مستعرة ابدأ بين جميع الملل والطبقات لا هدنة ولا سلام فيها .

وبعد منتصف الليل صرخ طفل في الغرفة المجاورة فجاءت
الخادمة به الى والدته سيدة الدار التي لم تحفل بولدها وفلذة كبدها
بل أخذت تؤنّب خادماتها تأنيباً شديداً قائلة لها :

انك بهيمة لا تعقلين ألا ترينني منشغلة مع ضيوفي ! لماذا
جئت به الى هنا ؟ اذهبي حالا واعطيه قليلاً من ماء اليانسون
الساخن كما علمتك مراراً فينام ونرتاح من صراخه .

فذهبت للحال وصنعت ما أمرت مولاتها لكنّ الطفل لم ينام
بل زاد انيناً حتى ايقظ اخويه النائمين بجواره . فشرعا يكيان
كأخيهما حتى ازعجا جمهرة اللاعبين . فعندئذ دخلت الوالدة
الغرفة وعنفّت ولديها تعنيفاً قاسياً وكلّت الخادمة كلاماً جارحاً .
ولما رأت ولديها لا يمتنعان عن البكاء ضربتهما فسكتا خوفاً
وجزعاً .

ثم قامت للطفل الصغير الذي لا يبلغ العام وانتزعته انتزاعاً
من يدي الخادمة ووضعت في سريره وقالت لها : دعيه ينام لحاله .
ثم عادت الى مائدة الميسر كأنّ لا شيء غير الميسر يروي
ظلمها .

وبعد قليل عادت الخادمة الى سيدتها متوسلة اليها كي
تنهض لمشاهدة طفلها الذي يئن أنيناً متواصلاً ولا ينام كعادته .
فاجبتها غير مسكتة دعيه وشأنه .
فنددت قلت للخادمة : دعي السيدة بجانب ضيوفها وأنا اذهب
معلك وارى الطفل .

فاجابت السيدة لا تزعج نفسك بذلك فبعد قليل ينام هنيئاً
فلا شيء يدعو للقيام اليه .
فأجبتها : انني احب الاطفال حباً جماً فلا تزعجي خدمتهم
كما اني أصبو دائماً لمراهم .

ثم دخلت الغرفة فشاهدت الصبيين الذين ضربا نائمين لكنهما
لا يزالان يتنهدان تنهداً متقطعاً . ورأيت الطفل الصغير يئن
أنين من انهكه المرض . فلمست جبهته ثم تناولت حلالاً ميزان
الحرارة من الخادمة ووضعت في فمه . ولما عاينت درجته وهي تزيد
على الاربعين دعوت والدته الى الغرفة وقلت لها : ان طفلك
مريض تنهشه الحصى نهشاً عليك ان تهتمي سريعاً بأمره وتدعي
طبيباً لمعالجته .

اما ولدك النائمان بجواره فاسمعي كيف يشهقان من
الخوف من جراء ضربك وقساوتك . اعتبري كل ذلك

وتجنبني الوقوع بمثل هذا الخطأ في الغد .
ثم تركتها وودعت الحاضرين وعدت الى البيت .

وفي خلال الطريق أخذت افكر في قساوة هذه المرأة
وعدم اهتمامها بامر صغارها ثم قلت في نفسي : تباً وسحقاً للقاهرة
التي تنسى الام أقدس واجباتها وتنزع الرحمة والحنان من قلبها

ولما وصلت الى منزلي دخلت غرفتي وخلعت ثيابي ثم
استلقيت على فراشي . ولكن عبثاً حاولت النوم لانني كنت متوتر
الاعصاب لم اقدر ان انزع من مخيلتي صورة هذا الطفل المريض
الذي تنقصه العناية وحنان الأم ولا ملامح أخويه الصغيرين
الذين يعوزهما التربية الصحيحة والحنان الصحيح .

ثم أخذت تمرّ في ذهني مشاكل الحياة الاجتماعية وحوادث
بعض العيالات من معارفي واصدقائي وشرعت استعرضها حادثة
حادثة كما يستعرض القائد جنده . و كنت أقف برهة عند بعض
الحوادث الشائنة مدققاً في اسبابها كما يقف القائد امام الجندي
الشاذ يدقق في سبب شواذه

فبلغت في استعراضي الى حادثة ايلي وزوجها واغراقهما في

الموبقات وعدم اكترائهما لأطفالهما المساكين الابرياء .
 وبعد ان تأملت ملياً في شذوذهما وتفقدت بعض اعمالهما
 المنكرة وصلت الى هذه النتيجة المؤلمة :
 كم وكم من الناس الذين هم على شاكله ليلي وزوجها . وكم
 وكم من الاطفال المساكين المهملين مثل اطفالهما .
 فأمام هذه الحقائق الجارحة التي لا تُشرف الجنس البشري
 اخذت اتساءل :

ماذا يجب ان يصنع العالم المتمدن لتلافي الحيف الواقع على
 الاطفال الابرياء الذين هم تحت رعاية آباءهم العاجزين عن القيام
 بأمر معاشهم وتهذيبهم ؟

أليس عدم المساواة في تربية الاطفال وتثقيفهم يُعدّ ظلماً
 فادحاً ليس فقط يلحق الانسانية عارهُ بل يحرمها ايضاً من سرعة
 التقدم والرقى في مضمار المعرفة وبعيقها عن الوصول الى المثل
 الاعلى .

فكم من الناس الذين لو اتيح لهم ان يتثقفوا لأنوا بالمعجزات
 وأفادوا الانسانية فائدة عظيمة .

اما ذهبوا ضحية الاهمال والانانية وفريسة الشرائع الجائرة !
 أليس البستاني النبیه الذي يعتني باغراسه في دور نموها

الاول ويسهر دائماً على تقويم اعوجاجها يراها تنمو مستقيمة
اكثر منها معوجة وقوية اكثر منها ضعيفة .

هكذا الناس في دور طفولتهم وصبوتهم اذا بذلت العناية
اللازمة في امر تهذيبهم وتنقيفهم يشبون اكثر نشاطاً واستعداداً
للتقدم والرفي واشد ميلاً لاعتناق المبادئ القوية .

فلماذا اذن لا تمثل حكومات الامم دور البستاني النبيه
وتساعد علماء القرن العشرين وفلاسفته على وضع كتاب شامل
يضم قواعد التربية الصحيحة التي تقود النشء الى طريق الارادة
الفاضلة والخلق المتين ؟

ان علم التربية هو وحده يضمن مستقبل الناس ويقودهم الى
المثل الاعلى في الحياة . فيجب ان يتلقن النشء في جامعات
المدن وفي مدارس القرى والساكن قبل كل فن وعلم اذا شاء
الناس ان يحافظوا على سلامة اجسادهم وصفاء اذهانهم ومتانة
اخلاقهم .

اجل ان الناس ليسوا جميعهم صالحين لتلقين علم التربية .
فمن الواجب اللابز على الفئة الصالحة منهم بان تخصص في هذا
العلم وتحمل على عاتقها تربية الناشئة الانسانية . لأن الاطفال
ليسوا ملك آباءهم ولا سلعاً يتصرفون بهم كما يشاؤون بل هم

ملك الانسانية وراثتها المجيد .

فمتى وصل الجنس البشري الى هذه التربية العامة الشاملة
التي تحرّر النفس من عجز آباءهم وامهاتهم ومن اهمالهم وسوء
تهذيبهم فعندئذٍ يصح لنا ان نقول :
لقد بلغنا العصر الذهبي - عصر العلم الصحيح والتمدن
الصحيح والادب الصحيح .



الفصل السادس

الحكيم يشاهد ليلي في نادي الشبان ويتباحثان في غاية الحياة
الانسانية فتجهر امامه باعتقادها ان غاية الحياة هي اللذة
والاستمتاع واشباع الرغبات الجسدانية فيغالطها
مبرهنًا ان غاية الحياة هي اسمى مما تعتقد

مساء أمس ذهب الحكيم الى نادي الشبان ليتفقد شببيّة
العصر ويدرس اطوارها ونزعاتها .

وكان النادي في تلك الساعة غاصاً بالزائرين والموائد كلها
مغمورة بالكؤوس ومزدانة باقمار الطبيعة واقمار الجنس البشري
فاخذ الحكيم يتلفت يمنة ويسرة ليرى مقعداً فارغاً يجلس
عليه واذا بغادة حسنة الهندام رشيقة القوام تدعوه الى مائدتها
وكانت ترافق شاباً وسيم الطلعة في اوائل العقد الثاني من
عمره بينما هي اوشكت ان تودع الثلاثين .
ولما اقترب منها قالت له :

تفرّس بي قليلاً ألا تعرفني ايها الحكيم ؟
انا ليلي : وهذا صديقي رأفت عامر الحائز شهادة الهندسة

وهو من الطف الشبان ومن اكملهم اناقة وظرفاً .

ثم قالت : ماذا جاء بك الى هنا ايها الحكيم ؟

هل يلذك نادي الشباب ؟ وهل زرته سابقاً ؟ ام هي المرة

الاولى التي تزوره ؟ لأنني لم اجتمع بك هنا غير الآن .

فاجابها الحكيم : لم ازر هذا النادي سابقاً وقد احببت

الآن ان ادخل اليه زائراً كما دخلت الى معظم اندية المدينة

وحاناتها ومسارحها وملاهيها . لأنني من اولئك الذين يتفقدون

كل مجتمع ويتجولون في كل مكان . فكما ادخل المسارح

والاندية هكذا ادخل الهياكل والمساجد . وكما اتفقد اديار

الراهبات والرهايين هكذا ارقب بيوت الفحشاء والمقامرين .

وكما ارتاد قصور الاغنياء والحاكمن هكذا ادخل اكواخ

الفقراء والمزارعين . وكما ازور المعاهد وارقب نفسية المعلمين

والمتعلمين هكذا اطرق ابواب المستشفيات واتفقد المداوين

والمنداوين . لاني اود ان اختبر بنفسي جميع مناحي الحياة

الانسانية وادرس افراحها واتراحها وعوامل بيئاتها المختلفة ونزعاتها

المتنوعة لأتبين جيدها من رديئها ونافعها من ضارها لعلني اتخذ من

درسي واختباري عبرة مفيدة لنفسي ولسواي .

يلي — مالك وكل هذه الدروس والمتاعب التي لا فائدة لك ولا

لأحد منها .

عش كما تشاء ؟ ودع الناس يعيشون كما يشاؤون ؟

دعهم احراراً ينشدون اللذة التي يرغبونها .

دع الناسك ينشدها في صومعته ! والراهبة تنشدها في

صلاتها وتعبدها . والعاهرة في اباحتها وعهرها .

دع كلاً ينشدها اين يحدها .

أليست الحياة قصيرة على الارض ؟

فلماذا لا ينشد كل منا لذاته ويشبع رغباته .

ان ساعة الحظ هي الساعة الوحيدة التي نعيشها فيجب علينا

ان نغتنيها .

لقد صرفت اعواماً متمسكةً باهداب الفضيلة وتحملت

بسببها الجور والمساوىء . فماذا كانت النتيجة ؟ أما أضعت

زهرة عمري انشد الفضيلة كمن ينشد خيالاً لا وجود له او كمن

ينشد الماء في السراب !

ولما حطمت هذه القيود أعني قيود الفضيلة التي أوجدها

عنت المشتريين ولو لم العاجزين وابتدأت أعيش طليقة من

الحرّمات شعرت بلذة الحياة التي خلق لأجلها كل حي .

و كانت تتكلم بقوة الواثق من حقه والمؤمن بقوله . وكان

الشاب الجالس الى جانبها يشاطرها رأيها ويساعدها من حين الى حين كلما غمض عليها امر في بسط معتقده في قضية اشباع شهوات النفس واتباع الحياة الطليقة من كل قيد .

وبعد ان تبسطت ليلي ورفيقها بالكلام في هذا الموضوع ختما حديثهما طالبين من الحكيم ان يفهمهما ما هي قيمة الحياة اذا لم تكن مقرونة باللذة والاستمتاع واشباع الرغبات الجسدانية فقال : لم ادخل هذا النادي لانتكلم بل لأسمع ولا لأعطي درساً بل لأدرس ولا لألقي عظة بل لأتعظ .

لقد جئت لأتقّد ناحية من نواحي الحياة الانسانية ألا وهي ناحية مرح الشبان ولذاتهم . فكما يهمني الآن ان أسمع موسيقاهم الشجية وأرقب وجوههم الباسمة الفتية واشاهدهم يرقصون ويشربون ويغنون ويزغردون هكذا يلذ لي احياناً ان أجلس في مجلس الكهول والشيوخ متفقداً احوالهم ونزعاتهم .

فجل مبتغاي ان أعرف الى الجنس البشري من جميع نواحيه من ناحية طفولته الى ناحية هرمه . ومن ناحية حسناته ومساوئه - وفقره وغناه - وجهله وعلمه - وتدينه والحاده - وشجاعته وجبنه - وكرمه وبخله - الى ناحية عدله وظلمه - ولذنه الروحية والجسدية وألمه المادي والادبي

لقد ذهبت البارحة لزيارة مستشفى الحكومة للدرس
والاعتبار ومواساة المرضى والمتألمين .

وما ان بلغت رتاجه حتى استوقفني أنين الجرحى وعويل
انسائهم .

اصطدامٌ حدث منذ دقائق .

لقد دهم القطار الحديدي سيارة انويس نعيم بر كابها . فوقع
من جراء هذه الصدمة العنيفة بعض القتلى والجرحى فجئ بهم
الى هناك .

وقد شاهدتهم فور وصولهم وقبل وصول اطباء
والممرضات .

مشهدٌ مؤلمٌ مفاجع . وموت مرعبٌ كموث الجنود في
ساحة الحرب . وانين موجه كألينهم . مشيت بينهم واخذت
أتفقدهم واحداً واحداً وقلبي ينفطر اسنى عليهم لكنني لم أقدر ان
أذرف دمعاً واحداً لأن عيني جمدتا من جراء ذلك المشهد
الرهيب وغار معينهما كما تغور مياه الجدول المصطدم بنازلةٍ من
نوازل الطبيعة الهائلة .

ثم جاء الاساة وأعاونهم وابتدأوا ينقلون الجرحى الى اماكن
المعالجة ويدخلون القتلى الى قاعة الموت لأجل تشريحهم واعطاء

تقرير مفصل للحكومة عن سبب الوفاة .

وكان عددهم سبعة ثلاثة فتيان واربع فتيات قصفتهم يد
المنون في لحظة بالرغم من قوة فتوتهم ونضارة شبابهم . وهكذا
تقصف الزوبعة انضر الشجر معها كانت قوية يانعة .
هناك سألت احد الجرحى الذي كانت حالته اسلم عاقبة من
رفاقه . وكان الاطباء قد انتهوا من تضديد جراحه ووضعوه
بغرفة خاصة .

ماذا حل بكم ؟ قال والدموع تترقق على خديه المحزّمين
بالاقطة : ان خطبنا لجسيم ومصابنا اعظيم . . .
لقد قررنا البارحة ان نقضي هذا النهار في البنساتين الجميلة
الواقعة على ضفاف النهر .

فجئنا عشرون شاباً وشابة في حافلة من حافلات «الوتوبيس»
وتزودنا انحر المشروبات وأطيب المأكول وتأبطنا بعض آلات
الطرب كالعود والناي وغيرهما .

ولما دهمنا القطار الحديدي كنا جميعاً تغني ونزغرد بأعلى
اصواتنا وكانت اوتار العود والناي تشنف آذاننا فتزيدنا هوساً
وحبوراً . ولم يدر بخلد أحد منا ان يومنا الذي كنا نحسبه من
ابهج ايام الحياة سينقلب شؤماً ووبالاً علينا .

لقد غاب رشدي عندما نكبتنا بهذه الصدمة القاتلة ولم اع
 الاً وانا في هذا المستشفى بين ايدي الاساة .
 انني لا ادري الان ماذا حل بشقيقي وسائر رفاقي ورفيقاتي
 فلماذا يتركونني وحدي ولا يأتون اليّ ؟
 هل هم بجالة اتعس من حالي ؟ ام هل قست قلوبهم وتحجرت
 عواطفهم ؟

رحماك ! أحطني علماً عن كل منهم وجزاؤك الله ؟
 فذهبت من لدنه مستفحصاً عن حالة اخويه . ولما عرفت
 ان احدهما اسلم الروح والثاني بجالة الخطر عدت اليه قائلاً : ان
 شقيقك جريحان مثلك ولهذا السبب لم يأتيا اليك وهكذا سائر
 رفاقك ورفيقاتك .

ثم ودعته وهو يتقلب على فراش الألم والهواجس من جراء
 جراحه وتفكره بجالة شقيقه ورفاقه .

نأمل يا ليلى كيف كان هؤلاء الشبان والشابات يتسمنون
 اعلی قمة من قمم مرح الحياة وبهجاتها عندما صدمهم القدر الغشوم
 هذه الصدمة العنيفة . فقد ذف بعضهم في لحظة الى هوة الموت
 وهبط بالآخرين الى وادي الألم والدموع .

ليلي - انني من المؤمنات بوجهي الحياة وجه اللذة ووجه الالم ومن
المعتقدات بقول الشاعر :

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نساءً ويوم نُسراً
لقد نعتبت كثيراً في ماضي حياتي وقضيت احد عشر عاماً
في جحيم دائم . وكنت طيلة هذه المدة اردد هذا البيت الذي
تعلمته منذ صغري على مقاعد المدرسة . وكثيراً ما قلت في نفسي
متى يا ترى يصح قول الشاعر واحس بيوم لي ويوم عليّ يوم
يسوءني ويوم يسرّني . لأنني لم اشعر في تلك الاعوام السوداء
الآباً بكفرار الحياة وقساوة ايامها . الى ان قيض الله لي هذا
الرفيق الحبيب الجالس الى جانبي الآن فهو الذي مهد امامي طريق
اللهو والمرح وهداني الى معين البهجة والحبور .

فانا مدينة له بجعل ايامي كلها لي بعد ان كانت كلها عليّ .
لقد اصبحت معتقدة ايها الحكيم ان اللبيب في هذه الحياة
هو الذي يعرف ان يجعل كل ايامه له لا عليه . ولهذا السبب
تواني ما عدت أرغب التأمل بما يسوء ويؤلم لأنني أود ان أتخيل
الحياة من ناحية أفراحها وملذاتها لا من ناحية آلامها وبؤسها .
هذا هو الدستور الجديد الذي اتخذته نبراساً لحياتي وهو
ينحصر بهذه الكلمات الوجيزة التي اوحاها اليّ رفيقي : اضحك

مع الضاحكين وارقص مع الراقصين واسلك طريق الذات لتتمتع
بسعادة الحياة . أجل لقد حررتني هذا الدستور من قيودي الكثيرة
وجعلني اغمض جفني عن الفواجع واصم اذني عن المآسي .

وما ان أتمت هذه الكلمات حتى عزفت الموسيقى الغربية
توذن بابتداء الحفلة الراقصة . فقام معظم الفتيان والفتيات عن
مقاعدهم وابتدأوا يرقصون . وبينهم ليلي ورفيقها .

ولما انتهت القطعة الموسيقية عاد كل إلى مكانه . وعادت
ليلي الى حديثها . فقالت للحكيم : كيف رأيت هذا المكان ؟
أليس جميلاً ؟ ألا تذك هذه الوجوه الصيحة ؟ وهذه القدود
المائسة ؟ وهذه العيون الفاتنة ؟ وهذه الشبيبة الرائعة وهذه
الاجسام البضة الناعمة التي تنتقل وتتمايل بخفة ورشاقة على نغمات
الالحن والاوتار كما تنتقل وتتمايل العصافير على نفحات النسيم
الليليل وعلى نغمات شدوها وتغريدها ؟

أليس هكذا يجب ان نقضي الحياة ؟ ثم ملأت ثلاث
كوؤوس من الشمبانيا وقدمت كأساً للحكيم والأخرى لرفيقها
وحفظت الثالثة لها وقالت : اشرب ايها الحكيم سر لذة الحياة
وخمرتها المعتقة ورحيقها الصافي من كل شائبة . اشرب وارقص
وغن واشبع كل رغبات جسدك ودع جانباً اقاويل الناس

ومحرماتهم ومشاكلهم وآلامهم . كل واشرب ما يلدك قبل ان
يطبق الموت شفتيك وغنّ قبل ان يخرس لسانك واسرح وامرح
قبل ان تشيخ وتهرم وارقص قبل ان تفقد كل حركة وتسكن
في قبرك الى الابد .

فاجابها الحكيم - انك بهذه النعمة التي طلعت عليّ بها الآن
تستدرجيني للكلام عما يخالج نفسي في حين اني صرّحت لك
اني لم ادخل هذا المكان للنقاش بل للدرس . ولكن اذا قدر
للمرء في كل دقيقة من دقائق الحياة ان يفيد ويستفيد فما عليه
ان يتوانى في ذلك .

يا ليلي اذا كنت ترينني الآن اشجب الذين يسلكون طريق
الذات المتطرفة والاباحات غير المشروعة فهذا لا يعني انني ادعو
الناس الى الزهد في الحياة او الى التقشف المتناهي الذي يرمي لقهر
الجسد وعدم الاعتناء به .

اني اخطئ اعمال المتطرفين والشاذين سواء اكانوا من
هؤلاء او من اولئك .

ان النساء الذين لا يعملون عملاً غير الصلاة والتقشف
ويصرفون اعمارهم في البرية منقطعين عن الناس ومبتعدين عن
افراحهم واتراحهم . ويعتقدون الصلاح كل الصلاح في حياة

الخلوة وامتهان الجسد وشطف العيش فهم في نظري تائهون في
 بيداء الوجود عن اتمام رسالتهم الانسانية وتأدية واجباتهم
 الاجتماعية وضالون عن قطيعهم مهما كانوا انقياء القلوب وودعاء
 النفس . فهم يشبهون النعاج البريئة الضالة عن قطيعها . فكما
 يتفقدوا الرعاة وبحثون عنها في كل حذب وصوب لأعادتها
 الى الحظيرة الامينة هكذا يجب ان نتفقد امثال هؤلاء الناسك
 الساذجين القابعين في صوامعهم المتطرفين في تعبدهم وتقشفهم
 لأجل ردهم الى القطيع الانساني فيتمتعوا بنعم الحياة ويفيدوا
 الناس باعمالهم ومبرراتهم .

فاذا كانوا يبتغون مجد الله في زهدهم وانفرادهم وتحملهم
 مضض الفاقة والقهر . فجد الله لا يقوم بامتهان الاجسام والابتعاد
 عن نعم الحياة بل بمزاولة الاعمال النافعة في حقل هذا الوجود .
 ان حياة الناسك في صومعته تشبه شمعة القبور تحرق نفسها
 دون ان تنفع احداً في نورها . وفضيلتها الوحيدة انها لا تلحق
 الاذى بغيرها اذا كان عدم الحاق الاذى يعد فضيلة في نظر الناس .
 بينما المقامررون والفاحشون والمنافقون والظالمون كلهم يؤذون
 نفوسهم ويوقعون الضرر بغيرهم . فهم يشبهون المرضى المصابين
 بالابوة الخبيثة التي ليست فقط تفتك بهم بل يحملون عدواها الى

بيئاتهم وينقلون جرائمها القاتلة الى ابناء محيطهم .
 فاذا شئنا صيانة الجنس البشري من الهلاك المادي والادبي
 في هذه الحياة الدنيا فمن الواجب اللالزب ان نحارب الفحشاء
 والمساوئ « اما الهلاك الجهنمي فلا شأن لي به فهو من شأن
 الكهان والشيوخ » .

واذا شئنا ان نزرع بذور الطموح والرقى في قلب المجتمع
 فعلينا ايضاً ان نحارب الزهد الذي يقعد المرء عن الجهاد في حقل
 هذا الوجود .

واذا كنا نروم الانتصار للحق والغلبة على داء الرياء
 والمصانعة فما علينا سوى محاربة النمامين والمتعبدين الكاذبين الذين
 يظهرون امام الناس بمظهر القداسة والوداعة لكنهم كالافاعي
 ينفثون سموهم على كل من يمتك بهم او يقترب منهم .

منذ شهر دخلت احد الهياكل في يوم عيد وكان غاصاً
 بالمتفرجين لا بالمومنين . أقول بالمتفرجين ولا اخشى لومة لائم
 لأنني لست من الذين يلقون الكلام جزافاً .

فانا لم اجاهر بهذا القول على رؤوس الاشهاد الا بعد ان
 تفقدت الناس كثيراً في معابدهم وسبرت غور أفكارهم وبواطن
 ضمائرهم . ودخلت الى أعماق أعماقهم .

و كثيرًا ما راقبتهم في أبن صلواتهم وسجودهم وركوعهم
فلم أجد والحق يقال صورة الاخلاص في التدين الا على بضعة
أفراد منهم يعدون على الاصابع .

اما الاكثية الساحقة من الكهان والشعب فهم يدخلون
الهياكل من قبيل العادة او من قبيل الغايات الدينية او لأجل
اظهار التعبد الكاذب امام الناس .

ان الهياكل بنيت باسم الحق لا باسم البطل وشيئت لأجل
تعميم الفضائل لا الرذائل ولأجل تطهير النفس من مساوئها لا
لزيادة انغماسها في المساويء .

فمن الواجب ان تكون منزهة عن الشوائب لا مسرحاً لها .
انني لست من الداعين لتكرار الصلوات وكثرة الركوع
والسجود في الهياكل . فاذا شاء المرء ان يدخل الهيكل ليختلي
بنفسه ويمحسبها على اعمالها فحسنًا يصنع وما خلا ذلك فهو مختل
يتظاهر بما ليس فيه .

ان الضمير الحي والعمل المثمر المفيد في هذا الكون هما
بنظري افضل صلاة يقبلها الخالق ويسبغ عليها وابل نعمه لا تعدلها
ملايين الصلوات والتوسلات .

يا ليلي كيف تريدین ان ندع کل امریٰ ينشد اللذة التي
يرغبها ؟ فاذا كان الامر هكذا وترك الحبل على الغارب فماذا
يجل بالانسانية ؟

فهل تريدین ان نترك اللص ينشد لذته بسلب الاموال
وسفك الدماء .

وندع الفاسق ينشدها بانتهاك المحرمات والاعتداء على
اعراض الناس ؟

وندع المنافق يهضم حقهم والنمام يشي بهم والمستبد
يستعبدهم والمخاتل يخدعهم والمقامر يخرب بيوتهم والخالغ العذار
يستهوهم . لأن كلاً منهم حرّ بان يفعل ما يشاء وينشد اللذة
التي يريدّها ولو كانت تسيء اليه والى سواه !

وهل يجب ان تقف الانسانية مكتوفة اليدين تجاه هذه
اللذات الضارة التي ليست فقط تفسد اخلاق المجتمع الانساني
بل تقضي على ظموحه وعلى كيانه الادبي والمادي .

يا ليلي ان المرء عندما ينجز عملاً مفيداً يشعر دائماً بلذة
عمله وراحة نفسه حالة كونه عندما ينتهي من عملٍ دنيءٍ يشعر
بفقدان لذته وخزيه وانتباض نفسه وهذا يعني ان اللذة الدائمة هي
نتيجة الاعمال المفيدة لا نتيجة الموبقات .

اما اشباع الرغبات الصحيحة فلا يحصل عليها المرء الا من وراء الطموح والمغامرات الشريفة لاجل رفع مستوى الناس الادبي والمادي . لا في المغامرات الدنيئة التي تلحق الاذى بهم . وهكذا الاستمتاع فليتمتع كل منا بنتيجة جهوده الشخصية لا بما يأخذه غنوة من سواء او بما يتناوله او يرثه من أبويه وذويه وثقي يا ليلي ان اللذة الحقيقية التي لا يمجها المرء ولا يشبع منها طيلة حياته هي لذة الجهاد المتواصل في سبيل نصرته الحق ولذة اكتساب العلوم والفنون والفضائل .

ولست هذه اللذات بعيدة عن تناول المرء اذا كان لها طالباً . لأنه قادر ان يكيف نفسه كما يشاء وان يرى لذة في كل ما يعتاد عليه حتى في الامور التي لا تلذذ في بادئ الامر فبعد الخبرة والدرس تستسيغها نفسه وتهفو اليها . لأن الانسان عدو لما يجمله وصاديق لما يحسنه .

وهذا ما اختبرته بنفسي ولا ازال اختبره في كل سانحة من سوانح الحياة .

وقد جرى لي حادث من هذا القبيل اذكره الآن على سبيل المثال : كنت في أوائل شبابي لا اتذوق فن الرسم ولا ارى لذة في مشاهدة الصور الجميلة والتماثيل البديعة ولو كانت من صنع

عباقرة الفن واربابه الملهمين .

ولا ازال اذكرك انني عندما زرت للمرة الاولى متحف اللوفر في باريس سنة ١٩٢٣ كنت انتقل بين التماثيل الناطقة بسحر الفن والرسوم الخالدة بروعتها وبهائها كن يتنقل في الطرق المألوفة التي لا تستفز مشاهدها ولا تهمة لا قليلاً ولا كثيراً .

وذات يوم دخلت وصديقاً لي مرسم احد الفنانين وكانت القاعة التي استقبلنا بها ملاءى برسومه وبعض رسوم فناني القرون الوسطى والمعاصرين .

فاخذ صديقي يطوف في تلك القاعة متفرجاً وقد شاهدته يتطلع في تلك الرسوم تطلع المستعذب مشاهدتها والمستفسر عن رموزها وكان يقف عند بعضها ويطالعها بدقة وبرغبة زائدة كأنه يطالع قطعة خالدة من عيون الشعر او النثر .

وكان من حين الى آخر يستعين بالفنان ليشرح له ما غمض عليه من تفهيم آياتها .

وبعد انتهائه من الطواف اخذ يباحث الفنان في تلك الرسوم وينتقد بعضها على مسامحة ويثني على البعض الآخر والفنان يشاطره رأيه حيناً ويخالفه أحياناً باسقاطاً له بعض اسرار الفن ومعجزاته . وانا بينهما كالغريب الذي لا يفهم اللغة التي كانا

يتحدثان بها .

فشعر الفنان بذلك وقال لي : يظهر انك لا تستمرى هذا
الفن لجهلك اياه ولعدم معرفتك بعض قواعده الاساسية . ولكن
متى درسته قليلاً وسهل عليك فهمه ليس فقط تستمرئ به بل
يدهشك سحره وتهجك روعته .

ثم جاء برسم واخذ يدلني على كيفية درسه ويشرح لي
وضعيته ودقة انسجامه وتقاطيع كل جزء من اجزائه وطريقة
تلوينه وتنسيقه ثم قال لي :

اذا شئت ان تتذوق هذا الفن كما يتذوقه رفيقك الآن
تعال اليّ كل صباح طيلة هذا الاسبوع فاحيطك علماً بكل ما
تحب معرفته . ويكفي ان تلج باب الفن وتبتدى ان تفهمه قليلاً
لتتذوقه وتشعر بما فيه من اللذة الفائقة .

واذا كنت غير مصدق كلامي فسل رفيقك فإنه كان
مثلك لا يستمرئ . وبعد ان احطته علماً ببعض مقدماته اصبح
من هواته ومن المتحمسين في درسه . وهو الآن يصرف قسماً
من اوقات فراغه في دور المتاحف وفي قاعات الفنانين يمتع نفسه
في مشاهدة بدائع الفن بعد ان كان يرتاد المقاهي والحانات ليمتعها
في الملاحى والمسكرات .

فذهبت اليه في صباح اليوم الثاني . ومنذ وصولي أخذ
يطوف بي في تلك القاعة ويحدثني عن تلك الرسوم التي كنت
اراهها صامتة صمت الموتى وجافة كجفافهم .
وبعد ان علمني بضعة ايام كيف يجب ان اتطلع اليها لأسبر
غورها والتقط دررها الكامنة في اعماقها ابتدأت أذوقها وصرت
فيما بعد ارى الرسوم البديعة تتكلم بدون لغة الكلام وتنطق
بغير وساطة اللسان .

أجل انها تتكلم وتنطق بقوة روح الفن وسحره . وتدخل
من نافذة العين الى الدماغ والجنان فتتهزهما هزاً .
ثني يا ليلي ان من يختبر الفن يلذه الفن ومن يعتاد الرياضة
تلذه الرياضة ومن يقبل على التجارة تلذه التجارة . لأن كل عمل
يألفه المرء يلذه .

فما بالنا اذاً لا نألف الاعمال المفيدة لأجل الحصول على
لذاتها بدلاً من الانغماس باللذات الهادمة الناتجة من الاعمال الشائنة .
ولما انتهى الحكيم من كلامه تنطع رأفت رفيق ليلى واجاب :
مهما جئتنا من الآيات البيّنات ومن ضروب الحكم والمواعظ
والامثال الرائعة والخيالات السامية فلا تقدر ان تثنيننا ولا تثني
الناس عن اللذات الطبيعية التي فرضها الوجود فرضاً علينا . فما

نحن الذين خلقنا تلك اللذات بل هي موجودة فينا منذ وجدنا على
سطح الغبراء . فاذا ابحناها لنفوسنا فلا نكون من العابثين .
هي مشتهيات جسمانية نسعى بالطبع اليها كما نسعى الى
الغذاء والماء .

لقد جاء قبلك الانبياء والرسل وحضوا الناس كثيراً على
كبح جماح شهواتهم ووعدوا الطائعين بعد الموت بالثواب في
جنة الله واندروا العاصين بالعقاب في نار ابدية لا تطفى . لكنهم
اخفقوا في تعاليمهم وفي انذاراتهم لعجزهم عن اصلاح الناس في
كل ما يختص بنزعاتهم الطبيعية وميولهم النفسانية التي لا تزال
كما كانت في عهد اجدادهم هي الحاكمة المطلقة على اذهانهم
والمتسلطة على قلوبهم .

ان الغريزة الفطرية تأمر وتنهى في الناس لا الشرائع الروحية
ولا المدنية والادبية .

فالمنفطور على الصدق والكرم يحيا صادقاً كريماً والمنفطور
على البخل او النفاق يقضي حياته منافقاً او بخيلاً وهكذا دواليك .
وفضلاً عن ذلك ان اللذات البشرية متنوعة الاشكال
ومختلفة المذاق ليست كلها مستعذبة عند جميع الناس .
كل يستعذب منها ما يألف مزاجه .

فكما ان لذة كسب المال وجمعه ينشدها عباد المال ولذة
 الصلاة والتعبد يسعى اليها المتعبّدون ولذة العلم يتذوّقها العلماء .
 هكذا لذة السكر يصبو اليها السكارى ولذة التهنّك يستمرونها
 المتهنّكون . ولذة المقامرة يحن اليها المقامرون .

ان الانسان يسعى دائماً وراء اللذات المنطبقة على ميوله وهواه
 لا وراء اللذات التي لا يألفها ولا يرغب فيها .

وما ان بلغ هذا الكلام حتى سمع الموسيقى تعزف الحان
 « التانكو » . فوقف للحال وقال للحكيم :

نصّر في الآن فتبدو لك جلياً قوة الميول والاهواء النفسانية
 انني احب « التانكو » حباً جماً وتستفزني الحانها الشجية .
 فكما سمعت عزفها أشعر بقوة تدفعني للرقص ألا وهي قوة اشباع
 رغبات النفس والتماس لذاتها .

ثم استأذن الحكيم ودعا ليلي وراحا يرقصان مع الراقصين .
 ولما رجعا الى مكانهما قالت ليلي للحكيم :
 كيف رأيت صديقي رأفت ؟ ألم يدهشك بقوة حبه
 وسحر بيانه وبرقة شمائله وخفة روحه ؟

لقد تخرّج من أعظم جامعات الغرب وثقّف ثقافة اوروبية
 عالية ولهذا السبب تراه حراً الافكار والنزعات يتكلم بصراحة

وجرأة ويفهم معنى الحياة العصرية بكامل نواحيها .
 وهو كثير التألق في لباسه ورقصه وفي حديثه وسمره وممتاز
 بمجونه ودعابته . وفوق ذلك هو علم من أعلام البطولة في الالعب
 الرياضية الحديثة .

لقد ربح منذ شهر كأس بطولة السباحة وفي أوائل هذا
 العام فاز بكأس بطولة التنس .

وحسبه انك تراه دائماً باسم الثغر لا يعرف العبوسة ولا
 التجهم ولا يرتاد غير اندية اللهو واما كن البهجة والحبور . انه
 عالم من علماء الطبيعة البشرية يعرف جيداً ان يتدبر لذة ثمار الحياة
 وورودها وان يتنحى عن اشواكها وقشورها

فاجاب الحكيم ليلى ورفيقها بكل صراحة قائلاً :

انني من المؤمنين بفائدة العلم الصحيح والمدنية الصحيحة
 وبمنفعة الالعب الرياضية التي تؤدّي الى سلامة الاجسام
 والاذهان .

لكني لا اعترف بالعلم الذي يهدم ولا يبني ولا بالحجة التي
 تنصر الضلال على الحق . ولا بالمدينة الزائفة التي لا تتركز على
 اساس الاخلاق المتينة والمبادئ القوية . ولا أوّمن ايضاً بالثقافة
 الواهية التي لا تسمو بمدارك الناس ولا تقودهم الى الاعمال المفيدة

المثمرة .

اني أرثي لحالة شباب هذا البلد الذين لا همّ لهم غير اشباع
شهواتهم وملء بطونهم وتجميل ابدانهم .

شبابٌ ينتقلون من حانة الى حانة ومن نادي الى ناد ومن
مرقص الى مرقص كأنّ لا شاغل يشغلهم عن الحانات والمراقص .
شبابٌ خانعون لا يشعرون بذلهم وعبوديتهم اذ لا عزّة في
نفوسهم ولا طموح في صدورهم .

شبابٌ يحسنون لغات الاغيار ويجهلون لغتهم ويتباهون
بادب الفرنجة ويحتقرون ادبهم .

شبابٌ يزدرون بنفوسهم وبتراث اجدادهم ولا يعلمون .
شبابٌ لا كالشباب ورجالٌ لا كالرجال . يدعون المعرفة
وهم الاغبياء والشجاعة وهم الجبناء والقوة وهم الضعفاء .

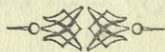
يناديهم الواجب فلا يلبون ويدعوهم الوطن فلا يسمعون
وتستصرخهم الانسانية فلا يجيبون .

هكذا هم معظم شباب هذا الوطن .

اما شباب الغرب مع ما في الغرب من الاباحة والفساد
والطمع وحب الاستئثار والفتك بالشعوب الضعيفة الآمنة
فمنهم المجاهدون في سبيل قوميتهم وتعزيز اوطانهم . ومنهم السباقون

في ميادين العلم والصناعة والاختراع والمغامرون لاكتشاف اسرار
الكون وارتداد الاصقاع . ومنهم المخلقون لدرس خصائص
الاجواء ومعرفة ما في الملاء الاعلى من المدهشات . ومنهم العلماء
والفلاسفة الانسانيون والاباء والشعراء العالميون الذين يؤلفون
ويبتكرون ويشحذون قرائهم لخير الانسانية ورفقيها الصحيح .
ومنهم صدر كل علم وفن وخبر .

ومنا — ولا شيء منا في هذا الجيل حالة كوننا أولى بالعمل
منهم لأننا بحاجة الى كل شيء — الى انشاء وطن واستقلال
امة واتحاد كلمة وتثقيف قوم وانهاض شعب باسره .
فيجب ان يتبصر شباب الوطن بكل هذه الامور وان
يعتقدوا مبدءاً سامياً في الحياة ويسعوا لتحقيقه . لأن المبادئ
السامية هي الشعاع الالهي الذي يهدي الانسانية الى الصراط
القويم .



الفصل السابع

الحكيم يرتاد المصايف اللبنانية ويلتقي بليلي وخليلها في الفندق
الكبير في صوفر وفي فندق القاصوف في ضهور الشويز

أقبل الصيف بحرّه ولهيبة وأطل تموز ينفث قيظه المحرق على
مدينة بيروت جوهره المتوسط ولؤلؤة الشرق الادنى فابتدأ
الموسرون من سكانها يصعدون الى جبال لبنان المشهورة بجودة
مناخها وطيب هوائها ومائها وفتحت الفنادق ابوابها لاستقبال
قوافل المصطافين من كل حذب وصوب من ابناء الساحل والداخل
ومن مصر وفلسطين والعراق ومن بعض انحاء نجد والحجاز .
اجل ان لبنان في الشرق الادنى هو بمثابة سويسرا في الغرب
يوئمه المصطافون وطلاب النزهة من جميع الاقطار والامصار .
فهو ليس فقط مصيف رجالات العرب واحرارهم ومجلى انسهم
وراحتهم بل هو ايضاً قبلة المستشرقين من رجالات الغرب
ومطمح رواد السياحة وعلماء الآثار .
وفوق ذلك هو الجسر الذي يربط مدينة الشرق بمدينة
الغرب ويقرب بين ثقافتيهما الادبية والمادية .

ان هذا الجبل هو مستقط رأس الحكيم . يصعد اليه كل
عام ويقضي اشهر الصيف متجولاً في ربوعه الساحرة .
وفي هذا العام قضى شهر تموز في مدينة عاليه عروس
المصايف اللبنانية وفي القرى التي تجاورها .

وكان كل يوم يسرح متنزهاً في تلك الانحاء فيقطع
المسافة القريبة ماشياً تارة في شوارع عاليه وجاداتها وطوراً في
اخراجها وغاباتها . اما المسافات البعيدة فكان يقطعها في السيارة
فيتجه احياناً الى سوق الغرب وشمالان وعيناب وعبيه فيستريح
في كل منها ويتنزه في خمائله البديعة ويقف مدهوشاً امام روعة
مناظرها المختلفة — مناظر الضرود والنجود والقمم والوديدة
والانهار والجداول والقرى والمزارع والاحراج والحدائق
والمدينة والبحر .

وكان يسلك في بعض الاحيان طريق بخشتيه وبحجّاره
والغابون وكفر عمي ويمحط رحاله في شرتون قرية الالهام والطبيعة
الساحرة .

فيرتاح فيها قليلاً ويسرح في حقولها الجميلة ويتمتع بنسيمها
الليل وسنديانها الظليل ومائها السلسيل .
ان كل قرية لا بل ان كل دسكرة في لبنان هي ملهمة

ساحرة سواء أكانت قائمة على رأس الجبل ام في الواد وعلى ضفاف
الانهر والسواقي او على الهضبات المنبسطة بين اغراس الكرمة
واشجار الزيتون والتين .

ولما بزغت شمس شهر آب انتقل الى بمحمدون ونزل في
الفندق القائم بجوار المحطة .

بقي هناك اسبوعاً كاملاً متجولاً بين اغراس كرومها ومتفنياً
ظلال صخورها ثم قدم بلدة صوفر المصيف اللبناني المشهور ونزل
في فندقها الكبير . وبعد ان استراح قليلاً أخذ يتمشى في
حديقة الفندق مجيلاً انظاره بكل ما يحيط به من جمال صنع
الله وصنع الانسان .

وفي عصاري ذلك اليوم بينما كان جالساً تجاه الشارع يرقب
المارة ويشاهد السيارات الجادة صعوداً والهابطة نزولاً اذا بسيارة
تقف امام المدخل الكبير فيترجل منها شاب توسم معرفته ثم
تنزل على الاثر سيدة متشحة ثوباً حريزاً ارجواني اللون فعرفها
لأول وهلة انها ليلي .

ورأى الشاب يأخذها بذراعه ويدخلان الفندق .
وبعد حين نزلا واخذا يتمشيان في الحديقة وكان كل من
يراهما ولا يعرفهما يعتقد انهما عروسان جاءا التمضية شهر العسل

في هذا الفندق الجميل .

وفيا هما يتمشيان في الحديقة ذهاباً وإياباً ابصرا الحكيم
فأتيا اليه وسألما عليه .

ثم قالت له ليلي : متى جئت صوفر وهل تمكث طويلاً فينا ؟
وكيف تقضي نهارك هنا ؟

الحكيم - جئت هذا الصباح وسأملك فقط بضعة أيام في هذا
الفندق . اما نهاري فأصرفه متجولاً في أرجاء هذه البلدة متنزهاً
في حقولها وبراريها متسلقاً هضابها ونجادها . فانا من رواد الحقول
والجبال ومن عشاق القرى والمزارع . وانت يا ليلي هل تمكثين
طويلاً في هذا الفندق ؟

ليلى - سابق أسبوعاً فقط لان صديقي رأفت دعاني الى هذه النزهة
الجميلة وهو يحب صوفر حباً جما ويرتاح في فندقها الكبير لانتفاضة
غرفته ونخامة امرته ولذة طعامه وبما فيه من ضروب الملاهي
والمراقص وانواع التسلية وألعاب الرولات والبكارا وخلافهما
الحكيم - وصغارك في بيروت من يتدبر أمرهم مدة غيابك ؟

ليلى - والاهم . أليس من واجباته ان يعتني بهم أياماً كما اعتنيت بهم
اعواماً وان يقهر نفسه لاجلهم قليلاً كما قهرت نفسي بسببهم كثيراً
قل لي بحقك أمن العدل بان يتنعم الرجال وخدمهم باطاب

الحياة وتحرم منها النساء . لا لعمرى .

ان عصر استعباد المرأة وامتلاك حريتها امسى في ذمة الماضي .
 اما اليوم فليس بوسع الرجل ان يعتبر زوجته آمة . بل هي سيدة
 نفسها وبيتها كما هو سيد نفسه وبيته . فما يحق له يحق لها وما
 يتمتع به من لهو وسمر وسياحة تتمتع به ايضا لانها مثله من
 لحم ودم وعواطف وشعور لا بل هي أدق منه احساساً واسى
 روحاً وارق قلباً .

لقد كان الرجل رأس المرأة في العهد القديم . اما اليوم
 فصار قلبها اذا كان عصري المبادئ ورشيقاً ناعماً وذنبا اذا كان
 رجعيّاً مستبدّاً ودميّاً مكروهاً .

الحكيم — ليست المسألة بين الرجل والمرأة هي مسألة رأس وذنوب بل
 هي مسألة الواجب المفروض على كليهما . فمن يقوم بواجباته الزوجية
 والابوية والانسانية فهو الرأس في نظر المجتمع سواء أكان رجلاً
 أم امرأة ومن يخل بها فهو الذنب في نظر كل عاقل حكيم .
 وقد يحدث ان يقوم الزوجان بواجباتهما . فاثنتاهما يكونان
 من رؤوس المجتمع البشري كما انهما يكونان من اذنا به اذا كانا
 من العابثين المستهترين .

ان من يسعى وراء الاعمال المفيدة فهو الرأس ومن يزاول

الاعمال المنكرة فهو الذنب .

ولما أتمّ الحكيم هذه الكلمات تنطع رأفت صديق ليلى
واجابه متهمكاً : ليست المسألة هي مسألة رأس وذنب ولا هي
مسألة أعمال مفيدة وأعمال منكورة ولا مسألة فضائل او رذائل :
كل ذلك أوهام من أوهام الناس وقيود من قيودهم .

ان المسألة هي أن يعرف المرء ان يتدبر نفسه ليعيش منعماً
مسروراً في حياته القصيرة على الارض .

وما عدا ذلك فلا شيء يفيد في هذا الوجود .

ان الفلسفات الواهية والشرائع الباطلة القائمة على الفضائل
والرذائل كلها اضغاث أحلام لا تتركز على أساس الطباع
الانسانية والغرائز البشرية .

هذا هو معتقد الشباب المثقف في هذا العصر وايمان فتيانه
وفتياته .

وكفاك ايها الحكيم نصحاً وارشاداً وامعاناً في التخيلات
الصوفية والتأملات الروحية التي لا يابها لها أحد في هذا الجيل
الطافح بالحقائق العملية والامور المادية الصرفة .

الحكيم - أعذرني اذا قلت لك بصراحة انك تجهل حقائق الحياة
والطريق المؤدي لهنائها وسعادتها . لأنك لا تزال في مستهل

فتوَّتكَ وهو من شبابك لم يتسنَّ لك اختبارها بذاتك وقد يصعب عليك كما يصعب على الكثيرين ان تدبر حياة غيرك ممن تخطوا الشباب وتتخذ منها أمثلة مفيدة لنفسك .

ان اعمال الانسان على سطح الغبراء ليست هي اضغاث أحلام كما تعتقد بل هي حقائق ناصعة تلمس نتائجها المتباينة والمتفاوتة في كل منحى من مناحي حياته .

ولهذا السبب كن واثقاً تمام الثقة بان الاعمال المنكرة على اختلاف انواعها ليست هي طريق الحياة الامينة السعيدة على هذه الارض .

X ويكفيك لتعتنق مبدئي وتعتز بصحة كلامي بان تراجع قليلاً حياة بعض الذين تخطوا الشباب وكانوا من السكارى او من المتهتكين ومن المقامرین او من المنافقين كيف أمست في الغالب حياتهم عبثاً ثقیلاً عليهم وعلى ذويهم .

فمن لا يشكو الفقر يشكو مرضاً مستعصياً ومن لا يشكو المتاعب العيلية يشكو من خسران ثقة الناس به ونفورهم من معاملته . انه دائماً يشكو من ابناء محيطه وذويه ولو انصف لشكا من نفسه ومن اعماله فقط .

فمتى عرفت ذلك وتدبرت الحياة البشرية من كل نواحيها

يظهر لك عندئذ عملياً لا خيالياً ومادياً لا روحياً ان سعادة الحياة الحقيقية لا توجد الا عن طريق الفضائل والاعمال المفيدة .

انني ارى كثيرين من الناس الذين يزيغون عن طريق الحق ويهيمون في بيداء الاثم ولا يرجعون عن خطاياهم الا بعد فوات الاوان — ساعة ندر بهم الكهولة باثقالها والشيخوخة بضعفها ومتاعها . فيندمون ولات ساعة مندم .

فعلى الشاب المثقف ان يتعظ بما تقدمه من الناس الذين صرفوا حياتهم في اللهو والمساوىء لئلا يصل في كهولته الى ما وصلوا اليه .

ان حياتهم التاعسة هي افضل عظة وعبرة عند من يتعظ ويعتبر .

ولما انتهى الحكيم من كلامه قال له رافت :

لا يهمني لا قليلاً ولا كثيراً ما وراء طور الشباب من المشاكل والمتاعب ما زلت معتقداً ان لذة في الحياة بعد الشباب ومتى فقد المرء شبابه فسيان عنده الحياة او الموت .

وكانت ليلي تظهر اغتيابها ورضاها في كل كلمة يتلفظ بها حبيبها . ثم ودعا الحكيم ورجعا يتمشيان في ارجاء الحديقة . وبعد قليل ركبوا سيارة وذهبا للتنزه ولم يرجعا الى الفندق

الآن ساعة العشاء .

وفي الساعة العاشرة ابتداء الرقص في البهو الكبير فرأى
الحكيم ليلي وخليها يرقصان مع الراقصين ثم نظرهما يدخلان
مائدة الميسر ويلعبان مع اللاعبين .
هكذا كانا يصرفان الايام في هذا الفندق بين القصف
واللهو والرقص والمقامة .

انتقل الحكيم من صوفر الى مصيف حمانا الجميل وقضى
بضعة ايام في فندق الشاغور امام الشلال الرائع . وكان كل
يوم ينتقل في تلك الخمائيل البديعة والرياض الغناء .
وفي اواخر شهر آب صعد الى ضهور الشوير المصيف اللبناني
المشهور في احراج غاباته وفي مناظره الخلابة التي لا مثيل لها .
فنزل في فندق القاصوف الجميل القائم على تلة من تلال تلك
البقعة الفاتنة التي تعد بحق جنة من جنات الخلد .
مكث هناك شهراً كاملاً وكان على عادته يذهب كل يوم
للتنزه في ارجاء تلك البلدة وفي القرى المحيطة بها .
وفي اصيل يوم من ايام الاحاد بينما كان عائداً من نزته
مرّ في ساحة الفندق الواسعة ليرى مقعداً فارغاً يجلس عليه .

وكانت تلك الدار الفسيحة في تلك الاونة مزدحمة بالناس
 فرأى ليلى وخليها جالسين الى مائدة يكرعان الوسكي . فمر امامهما
 وحياهما بالاشارة لا بالكلام ثم جلس الى مقعد بعيد يشرف على
 الجادة وعلى اجمل ما تقع العين عليه من مناظر الطبيعة الخلابة .
 وكان يسرح طرفه تارة في هذا الكون اللامتناهي وطوراً في
 تلك الجماهير الجالسة الى موائد الشراب وفي اسراب المتخاصرين
 والمتنقلين ذهاباً واياباً في صحن الفندق وعلى شرفاته الفسيحة .
 وانه كذلك اذ بليلي تأتي اليه وتجلس الى جانبه وعلائم
 الابتهاج بادية على محياها . وعوامل الغرام مرتسمة على جبينها
 وعينيها وقد امتلكتها سورة الراح .
 وكان خليلها في تلك الساعة يراقص احدى السيدات التي
 كانت جالسة بالقرب منها .

فبادرت الحكيم بالكلام قائلة وهي تشير بيدها :
 تأمل هذه المرأة اللابسة الثوب الرمادي فهي خيلة
 هذا الشاب الذي تراقصه مع انها عقيلة احد اغنياء المدينة
 وزوجها من افضل الرجال خلقاً وخلقاً ومن اشرفهم محتداً .
 وهذه ايضاً المرتدية الثوب الازرق السماوي التي تراقص
 هذا الشاب المتأنق هي عقيلة احد كبار الموظفين الذين يكسبون

معاشاً طيباً ويشغلون مركزاً خطيراً في الهيئة الاجتماعية . وفضلاً
عن ذلك فهي كثيرة الطيش والعهر تعلق الشباب واحداً اثر
واحد . واحياناً لا تكفي بهم فتهم بالفتيان المرد من رفاق ابائهم
الذين هم دون العشرين وبعضهم دون ابائهم سنّاً .

وتلك الجالسة تجاهك برفقة بعلمها اللابسة الثوب العنابي
تراها تتظاهر بالعفاف لكنها بالحقيقة من اخبت النساء ومن
اشدهنّ عهراً .

وهذه الجالسة الى يمينك برفقة عيلتها فهي ليست فقط
عاهرة بل قوية فاجرة ومستبدّة قاهرة . يئن منها زوجها واولادها
وخداها ويتجنبها في بيروت كل من يتعرّف اليها لشدة مساوئها
وشراسة اخلاقها .

اما الجالسة الى شمالك . فكم كنت اتني ان تتعرّف الى
بعلمها . فهو رجل طيب القلب والضمير وحسن الخلق والخلق
وغنيّ بماله وعقله وادبه . وهي مع ذلك تخدعه وتخونه كلما سئح
لها الوقت .

على ان زوجها مع شدة تظاهرها بمحبته وتعلقها الشديد به
ابتداً يشكّ فيها لكثرة لغط الناس في سلوكها المريب . وسيفتضح
امرها قريباً .

اما تلك الجالسة بعيداً المستورة بنقابها الاسود فورااء النقاب
ما وراءه من الاباحة والتهتك .

ان معظم الناس في هذا العصر الفاسد يسلكون طريق
الفحشاء فكيف تلومني اذن ايها الحكيم بل كيف تحتقرني
وتقرّ امامي دون ان تكلمني .

فاذا اتيت المنكر وعشقت رأفت فذلك لأن زوجي لا
يستحقني فلو كان رجلاً فاضلاً لما كنت اخونه كما تخون تلك
النسوة رجالهن الافاضل فهو من فرط سكره وتهتكه وقساوة
قلبه رمى بي الى حضن هذا الشاب .

أما هنّ فقل لي بحقك من رماهنّ بأحضان عشاقهنّ غير
طيشهنّ ؟

ان الفرق بيني وبينهنّ كالفرق بين السماء والارض وبين
النهار والليل .

الحكيم - يا ايلي انك تتحلين الاعذار لاعمالك المنكرة لكن
الضمير والوجدان لا يقبلان لك عذراً .

فعليك ان تسلكي طريقاً غير التي تسلكينها ولا تحفلي بما
تعمل بعض النساء .

ان طريق العمل المفيد خير من طريق العمل المنكر والطلاق

في الحالة التي وصلت اليها خير من البقاء مقيدة بقيود الزواج الأثيم
 فمهما كان السبب الذي اوصلك الى العبت والمجون عظيماً
 فحبتك لرأفت واستمتاعك به على هذا الشكل المعيب ليس فقط
 يُعد عهراً بل خيانة ايضاً لرابطة الزواج التي لا تزالين مرتبطة بها .
 وعلى افتراض انك تودّين التخلص منها فهل يمكنك ان
 تتخلصي من روابط الحياة الانسانية جميعها .

ألنست الحياة منذ بدئها كلها روابط وضوابط ؟
 رابطة الابوة والبنوة ورابطة العيلة والزواج .
 ورابطة الجنس والدم ورابطة الاديان والاطوان .
 ورابطة اللغات والثقافات ورابطة الاحياء بالارض .
 ورابطة الارض بالنظام الشمسي ورابطة الاكوان
 بعضها ببعض .

ألنست كل منها مجرد ذاته يدلّ على رابطة الجزء بالكل
 ورابطة الكل بالقوة المبدعة التي ندعوها الله .
 فتي كان الامر هكذا أفلا تعتقدن اننا لا نقدر ان نعيش
 على هذه الارض بلا روابط ولا ضوابط . وكل ما يمكننا عمله
 ان نسعي لنزاع عنا الروابط التي تضيرنا وليست صالحة لجيلنا
 ونقيّد بما يفيدنا ويزيدنا سموّاً وادراكاً .

ولما انتهى الحكيم من هذا الكلام جاء رأفت وحيّاه ثم ودّعه وأخذ ليلى بذراعه . وذهبا الى مكانها .

ولما انتصف الليل صعد الحكيم الى فراشه وقبل ان يستولي عليه الكرى جال جولة في بعض مشاكل الناس الاجتماعية المتأتية كلها من عدم اتزانهم بسبب شذوذهم المادي والادبي . وتأسف كثير الأفلاس الشرائع الحالية وعجزها عن تسيير دفة الباخرة الانسانية الى المرفأ الامين .

أما ليلى وخليها فبقيا ساهرين على مائدة الشراب والمقامرة برفقة بعض الشبان والشابات الى الهزيع الاخير من الليل .

وفي اليوم الثاني بينما كانت ليلى تتناول الغداء مع خليلها دخل عليها احد جيرانها في بيروت واخبرها بان " ثاني أولادها مصاب بالحمى منذ ثلاثة ايام ونصح لها العودة الى بيتها حالاً لتعتني به قبل أن يحدث ما ليس بالحسبان .

فلم تحفل كثيراً بقوله . ولم يبدُ على ملامحها حنان الامهات ولا لهفتهم البريئة نحو اطفالهن حتى انها لم تسأله عن سبب مرض ولدها ولم تجبه غير كلمة واحدة : غداً اعود اليه .

غير انها بالحقيقة لم تترك الفندق الا في اليوم الثالث بعد معرفتها بمرضه .

الفصل الثامن

سلمى تزور الحكيم وتقص عليه بعض حوادث ليلى الجنونية
وتخبره بوفاة ولديها وزوجها وعدم مباليتها بموتهم

سلمى - جئتُكِ ايها الحكيم الآن ليس فقط لتأدية الزيارة الواجبة
اشخصك الكريم بل لأقص عليك ايضاً بعض حوادث جاري
ليلى التي يهّمك امر اصلاحها ولا أخبرك مفصلاً عن كل ما جرى
لها في الشهر الماضي .

في اواخر شهر آب أُصيب بهجت ولدها الثاني في داء
التيفوئيد . وكانت فور مرضه غائبة عن بيتها تنقل متنزهة في
اماكن الاصطياف برفقة احد فتيان هذه المدينة غير حافلة بزوجها
ولا بولادها .

وقد بعثت اليها رحمة بولدها من يفتش عنها في فنادق
الجل فعثر عليها في فندق القاصوف في مصيف ضهور الشوير .
واخبرها بمرض ولدها وشدة وطأة الحمى عليه ووجوب اسراعها
بالحضور الى بيروت لاجل الاهتمام بامر معالجته وخدمته خصوصاً
لأنها تعلم حالة زوجها الذي لا يُتكل عليه بمثل هذا الظرف

القاهر .

بيد انها لقساوة قلبها بل لشدة طيشها لم تقصد ولدها الا
بعد مرور ايام من معرفتها بمرضه .

وكانت الحمى في ذلك الحين قد امتلكتها امتلاكاً وارهقت
جسده ارهاقاً حتى امسى في ساعة اشتدادها يغيب عن الوعي
ويستسلم الى الهذيان .

ان بهجت ذلك الولد الجميل المسكين الذي كنت تشاهده
مراراً عندي وربما لا تزال تتذكر طلعه الوسيعة قضى نحبه
ضحية الاهمال وعدم الاكتراث .

لقد ناشدت والدته بعد رجوعها الى البيت كي تغني به جد
الاعتناء والمحبت عليها كثيراً بوجوب ادخاله احد المستشفيات
فلم تعر كلامي انتباهاً .

وكانت فوق ذلك لا تجلس الى جانبه ولا تهتم بتمريضه
الا قليلاً ونقضي معظم نهارها لاهية خارج بيتها .

ان ليلى تخبرني ايها الحكيم بقساوة قلبها واستغرب جداً
كيف صدرت منها كل هذه القساوة وكيف طاوعها قلبها بأن
تترك فلذة كبدها طريق الفراش تنهشه الحمى نهشاً وهي تلهو بعيدة
عن سريرته .

ولما رأيت الولد يزداد سوءاً ويتلاشى نفساً إثر نفس
كررت عليها القول بوجوب ادخاله الى المستشفى حالاً وتوسلت
اليها قبول نصيحتي رحمةً بولدها .

فأجابت بعنتٍ شديد : ليس لدي مال لأضعه في الدرجة
الاولى ولا الثانية ايضاً . وانت تعلمين كيف اضاع والده
ثروته كلها على ملذاته واهوائه وهو وحده مسؤول عن حرمان
ولده كل ما يلزمه من المداواة وحسن المعالجة .

فقلت لها : لا بأس ضعيه في الدرجة الثالثة فبأي درجة كان
هناك ارجى له من البيت .

فاستشاطت غضباً من كلامي واجابتنني بحدة مقرونة
بالعجرفة والتهكم :

هل يضع مثلي ولده في درجة الفقراء والمعوزين ؟ انك لا
تجهلين مقامي في الهيئة الاجتماعية فأولى بي ان يموت ولدي ولا
انزل مقدار ذرّة عن مقامي .

فجرت كثيراً ان اقنعها بان مقام المرأة مرتكز على حسن
اعمالها لا على نبجتها وغرورها وتعلقها بالأباطيل . لكنها لم
ترعوي لنصحي وبقيت مصرّة على عنادها .

فعندئذ ذهبت الى زوجي ورجوته بان يدفع نفقة المستشفى

عن هذا الولد المسكين بالدرجة الاولى رحمة به وشفقة عليه .

ثم عدت اليها في اليوم الثاني وبلغتها ذلك فرفضت في بادىء الامر قائلة: انها لا تريد ان تستجدي احداً . فاجبتها ان القيمة التي سندفعها عنك ليست من باب الاستجداء بل تعتبر ديناً عليك تدفعينه عندما تقدرين . فقبلت بذلك بعد الجهد . وذهبنا معاً وادخلنا الولد الى المستشفى .

ولما عاده الاطباء هناك صرّحوا لوالدته ولي انه بحالة التلف الشديد وقد يصعب عليهم كثيراً انقاذه من براثن الموت . فلو جيء به الى المستشفى قبل الآن لكان امر شفائه ممكناً .

فتوسلت اليهم بأن يضاعفوا جهودهم واعتنائهم به لعلهم ينقذون حياته . فقالوا اننا هنا نقوم بواجباتنا خير قيام لكننا لسوء الحظ لا نجتزح العجائب .

عاش الولد في المستشفى بضعة ايام فقط وكانت والدته لا تقضي بقربه الا ساعة أو ساعتين في النهار حتى انه قبيل وفاته بيضع ساعات صحا صحوة الموت . فطلب امه بالحاح من القائمة بأمر تمرضة ودمعت عينه لعدم وجودها قرب سريره .

أما تلك الام القاسية القلب فلم تصل في ذلك اليوم الى

جانبه الآخر بعد ان ملكته الغيوبة وابتداً يلفظ انفاسه الاخيرة .

مات ولدها فبدت في يوم مآتمه كأنها لم تفقد ولداً بل كأنها لم تكن أما لهذا الولد . ولم اسمعها تتكلم امام أفواج المعزين الآخر كلام السخط واللوم على زوجها وإلقاء تبعه موت الولد عليه وحده . كأنها قامت بواجبات الامومة وهو وحده لم يقم بواجبات الابوة .

فاذا كان طيشها القى غشاوة كثيفة على بصرها وقلبها حتى امست لا تشعر ولا تنظر قبح اعمالها . فهل امات ايضاً ضميرها ووجدانها وارتاحت من تبكيتهما ؟ لا أدري . وكل ما أدري أنها لكثرة شرحها وتكرارها كلام السخط على زوجها اجابته احدى السيدات الفاضلات : اننا جئنا الآن لنؤدي واجب التعزية لك لا لنسمع منك مثل هذا الكلام الذي لا يجدي نفعا . فما عليك سوى أن تقنعي بما قسمه الله لك واحرصي على ولدك الباقيين على قيد الحياة لأن من واجبات المرأة الحرص على صحة أولادها قبل الرجل .

يقولون ايها الحكيم : ان المرء يتعلم من التجارب لكن

هذا المثل لا ينطبق على ليلى لأنها بعد دفن ولدها . « عادت
حليمه الى عاداتها القديمة » . اجل عادت الى عبثها ومجونها والى
التمرغ في حمأة رذائلها والى عدم الاكتراث لولديها وبيتها .
و كأن العناية ارادت ان تنتقم منها أيضاً أو كأن نوااميس
الوجود تعيد اليها ما تمنحه لغير المستحقين فلم يضر اسبوعان فقط
على وفاة ولدها حتى فوجئت صباح يومٍ بخبر هزني هزاً ولم
أزل حتى الآن أرتجف ارتجافاً عند ذكره . ألا وهو وفاة ولدها
الصغير مدهوساً تحت عجالات القطار الكهربائي .

لقد ارتعت ايها الحكيم عندما نظرته على قارعة الطريق
مقطعاً نقطياً . أجل ان مشهد اسلائه المبعثرة هنا وهناك لما
يفتت قلب الجماد فكيف بقلب المرأة .

و كانت والدته في تلك الساعة الرهية قد خرجت من بيتها
على عاداتها ولم يكن هناك غير والده الذي وقع مغشياً عليه عند
مشاهدته ولده بتلك الحالة المريعة . فاهتممت بنقله الى بيته
وبعثت استدعي له طبيباً يعتني بامره

اما اسلاء الولد فقد نقلها الشرطة الى مستشفى الحكومة
لاجل اجراء المعاملات القانونية .

ثم اسرعت الى بيت ليلي لأرى ماذا جد على زوجها فكان
 الطبيب الذي استدعيته قد حضر لعيادته . فاخبرته عما حلّ به
 وعن سبب اغمائه . وبعد ان اسعفه ببعض المنعشات وانتهى من
 فحصه سألته عنه : فأجابني : ليس كما يجب واخشى عليه من هول
 هذه الصدمة ان يقع بالفالج الذي هو معرض اليه بسبب ضعف
 حصانته وعدم مناعة جسمه . وذلك كله متأثّر من شدة افراطه
 في حياته .

ثم ناشدت أحد الجيران ليرتاد جميع انحاء المدينة باحثاً عن
 ليلي كي يخبرها عما حلّ بعيلتها لتعود سريعاً الى بيتها . فقضى
 نهاره وهو يتفقدها في كل مكان دون ان يعثر عليها . لأنها
 كانت في نزهة خارج المدينة ولم تعد الى منزلها الا بعد غروب
 الشمس .

ويظهر انها عرفت من الجيران ما حلّ بولدها قبل دخولها
 البيت . لانها دخلت هائجة مأثمة ترغي وتزبد وتلعن الحياة والله
 وزوجها وسائق القطار الكهربائي . وكنت في تلك الساعة
 بجانب سرير زوجها قائمة بتمريضه . فهرولت اليها متوسلة بان
 تخفّف من حدتها قليلاً شفقة على زوجها الذي امسى من هول
 النكبة على شفير الموت . ورجوت منها أن تتسلح بالحكمة

والتوؤدة في مثل هذا الظرف القاهر . فلم تزد الا صراخاً
وعريدة على المريض الفاني وعلى جميع الناس .
ولم انج انا ايضاً من شنائها وبذاءة لسانها فوجدت من الحكمة
تركها وانصرفت الى منزلي .

وبعد مرور ساعة جاءت اليّ متشحة ملابس الحداد وطلبت
مني ان ارافقها الى المستشفى لاجل الاهتمام بنقل جثمان ولدها الى
البيت . فنزلت عند طلبها .

وهناك سألنا عن الولد فقادنا احد الخدم اليه .
ولما اقتربت والدته منه ورأته هيكلاً مرعباً واشلاءً محطمةً
تخطيطاً استولى عليها الذعر الشديد وألوت راجعة وهي تشق
بالبكاء وتلطم صدرها ورأسها .

أجل ان ذعرها الشديد عند رؤية هيكله المرعب كان
والحق يقال أشد وقعاً على قلبها من حزنها عليه .

كلّفنا ادارة المستشفى مسألة نقل جثمان الولد الى البيت
ودفعت عنها هناك كل النفقات المتوجبة عليها وثن التابوت ايضاً .
وفي اليوم الثاني دُفن هذا الولد العاشر الحظ في جانب أخيه
أما زوجها فلم يعيش بعد ولده الا بضعة ايام فأسلم الروح في

الصباح ودُفن في المساء . لأنها لم تشاء أن تبقى إلى اليوم الثاني
كما يُبقي الناس موتاهم بل اصرّت على دفنه حالاً زاعمة انها بعد
فاجعة ولدها أمست منهوكة لا تقوى على مشاهدة جثمان زوجها
ولا على احتمال الاحزان المتعاقبة عليها .

وفي هذه المرة قدّرت بنفسي ان ليلي بعد ان أصابها من
هول النكبات ما أصابها سترجع ولا شك عن ضلالها .

ولكن خاب ظني لأنها لم تبق في بيتها غير ايام معدودة مع
اني لم أدعها وحدها طيلة وجودها في منزلها . بل كنت اذهب
دائماً اليها لأجل تسليتها وغرس بذور الرجاء في قلبها . وكنت
أرى ولدها الوحيد جالساً الى جانبها هزيل الجسم كئيب النفس
كسير القلب . وقد اوصيتها بان تعني به وتكرّس حياتها
لأجله . لانه أملها الوحيد في هذا العالم . ونصحت لها بالعدول
عن سلوكها الشائن الذي افقدها روحها الطيبة . وكان السبب
لنكباتها وبلاياها .

كرّرت لها النصيح والارشاد فكنت كمن يصرخ في
واد أو يكلم الجراد .

والآن ارجو منك ايها الحكيم ان تذهب اليها وتبذل
قصارى جهدك لأصلاحها شفقةً عليها وعطفاً على ولدها

المسكين لعلها بعد ما عانتها من التجارب المرة القاسية نقوى على
ذاتها فتحرر من الاثم وتهتم بامر وحيدها .

ان كلامك ولا شك اوقع في نفسها من كلامي وعظاتك
ابلع من عظامي . فما انا تجاهك الا طالبة قاصرة اجني المعرفة والخبرة
من نتاج ذهنك واستمد الخلال الحميدة من أدب نفسك .

الحكيم - لقد تأثرت كثيراً لوقوع هذه الفواجع المؤلمة على ليلي
ومما زاد حزني عليها انقطاع رجائي من امر اصلاحها . لأنها كما
تقولين لا تزال جادة وراء حياة العبث والمجون بالرغم من وقوعها
بهذه الفواجع .

انني اعرف الطبيعة البشرية يا سلمى ومسالك نزاعاتها المختلفة
ولهذا السبب اصارحك القول : ان من كان مثلها لا يتعلم من
التجارب ولا يوعوي من الفواجع فهو مائت الضمير والوجدان
ولا رجاء منه . وهذا كله لا يمنعني من ان اقوم بواجباتي نحو ليلي .
فغداً اعودها معزياً وناصحاً ومرشداً كما ترغيبين وسأعمل كلما
بوسعي لأجل انقاذها من المفاسد ولو كنت معتقداً بان ذلك من
المستحيل .

لان من لا تفعل به الضربات والفواجع لا يفعل به الكلام
ولا تؤثر به العظات

الفصل التاسع

الحكيم يزور ليلى ويعزيها بوفاة ولديها وزوجها
ويزودها النصائح اللازمة

في صباح اليوم الثاني بكر الحكيم بالذهاب لزيارة ليلى
ليدر كها قبل خروجها من البيت وكانت عند دخوله لا تزال
نائمة . فاستقبله ولدها وهو على أهبة الخروج الى المدرسة . فاخذ
يزوده بعض العظات اللازمة للطلاب كحفظ النظام واحترام
القانون والاجتهاد في طلب الادب والعلم ليكون من الرجال
اللامعين في الغد ثم حاضه على اكرام والدته واساتذته وطلب منه
ان ينصرف الى مدرسته كي لا يفوته وقت المدرسة . وبقي في
الدار منتظراً ليلى الى ان استيقظت وجاءت اليه .

فبادرها بالتحية وبتقديم واجب العزاء على ما حل بها من
المصائب . واظهر لها بارق العبارات عن شدة التأثير الذي استولى
عليه عندما بلغه اخبار هذه الفواجع المؤلمة

فشكرت له ليلى افتقاده اياها وراحت تسرد له كيف
خسرت ولديها وزوجها في خلال شهر واحد . وقد تبسّطت في

شرح حادثة ولدها الصغير الذي قضى نحيبه تحت عجلات القطار
الكهربائي وكانت الدموع تنفث على خديها وعلائم الهلع بادية
على وجهها كأنها تخيلت في تلك الساعة هيكل ولدها المرعب
بعث من قبره وظهر امامها .

فهدأ الحكيم روعها برقة كلامه وطلاوة اسلوبه ثم اخذ
ينصحه قائلاً : يا ليلي ان التجارب في هذه الحياة الدنيا واقعة
على جميع الناس لا يخلو منها عظيم ولا حقير ولا غني ولا فقير .
والليب هو الذي يعرف أن يتدبرها بالحكمة والصبر ويتخذ منها
امثلة مفيدة لنفسه .

فما الضربات وانفواج التي تقع على الناس سوى عظة من
عظات تجارب الحياة وعبر من عبرها الزائفة .

يا ليلي : لا اجمل وطأة الخطوب التي ألمت بك ولا شدة
قساوتها لأنها سلبت زوجك وولديك اللذين هما من اعز وأثمن
ما يملكينه في هذه الحياة . فما عليك الآن سوى السهر المتواصل
والحرص الشديد على سلامة ولدك الوحيد وهذا أمر متيسر لك
لقد شاهدته ساعة وصولي وحدته ملياً فرأيت ذكي الفؤاد
وحسن الاستعداد لا ينقصه غير عنايتك .

فاصر في جل اهتمامك به لأن راحتك متعلقة براحته

وسعادتك بسعاده واعلمي ان لا لذّة للأُم في هذا الوجود إشهى
لها من لذة سعادة أولادها .

يا ليلي : لا أزيدك علماً عندما اقول لك ان الجمال المادي هو
عارض يزول متى زال الشباب ولا يرافق المرأة في جميع أدوار
حياتها غير جمال أخلاقها وحسن صفاتها .

كل ما ارجوه منك الآن أن تشفقدي ذاتك الهيولية كل
يوم وتتأملّي تأمل المدقق الباحث في نقاطيع وجهك وفي كل عضو
من اعضاء جسدك فعندئذ يظهر لك جلياً انك من زمن ابتدأت
تخسرين شيئاً فشيئاً جمالك الذي هو رأسمالك المادي لان ورائك
أمست معظم ايام صباك ولم يبق امامك منها الا اليسير .

لقد أطلت عليك الكهولة وغدت منك على قاب قوسين
والكهولة يا ليلي لا تدع سحراً في العيون ولا نضارة في الحياء ولا
رشاقة في القوام . فهل تعتقدين ان الذي ينشد جمالك اليوم لا
يجفوك في الغد ويعلق غيرك .

فاذا شئت أن لا تُنبذي في المستقبل نبذ النواة اعلمي منذ
الآن كلما بوسعتك لا كنساب جمال الاخلاق وجمال الفضائل .
واذا كنت ترغبين في الزواج فالفضيلة هي وحدها تقودك
الى من يطلب يدك .

واذا شئت أن تربحي ولدك ونكسبي قلبه وعطفه في الغد
وتحصلي ايضاً على محبة الناس واحترامهم فالفضيلة هي ايضاً تساعدك
على اكتساب ولدك وتجعلك محبوبة ومحترمة من الجميع .
واذا شئت حاجة من حاجات الحياة فثقي بان الفضيلة هي
التي تسهل امامك الوصول الى حاجاتك كلها .

لأن الفضيلة ما هي بالحقيقة الا نتيجة الجهاد المستمر المفيد .
ان عمل الخير فضيلة وطلب العلم فضيلة و كسب الرغيف
بعرق الجبين فضيلة ونصرة الحق فضيلة .

اما رأس الفضائل فقائم بقوة الانتصار على النفس و كبح
جماخ اهوائها ونزعاتها الباطلة .

ومما لا جدال فيه . أن الكبت شرٌ ولكن اعطاء الشهوات
مداها اكثر شرّاً من الكبت لأنها تتناول التعدي على الغير .

فلتكن اذن عقيدتك الراسخة في الحياة عقيدة الانتصار على
النفس ولتكن هذه غايتك القصوى لأن الانتصار على النفس
يفتح امامك جميع ابواب الفضائل الانسانية .

والآن اودّعك على أمل اللقاء بك كما يشاء الضمير الحي
لا كما نشاء النفس الامارة بالسوء .

الفصل العاشر

الحكيم يزور سلمى فنقص عليه بعض اخبار ليلي وتأثرها
الشديد عندما تركها خليلها واستسلامها للعهر
نكابة به وهجران ولدها لها بسبب فحشها

جاء الحكيم لزيارة سلمى فتلقته بكل حفاوة وترحاب
واخبرته انها كانت مزمنة ان تزوره مساء اليوم مع زوجها
لأنها منذ نصف عام لم تر شخصه الكريم ولم تأنس بمحدثه المفعم
بالحكمة والاخلاص .

فسألهما فور وصوله عن صحة زوجها وولدها فأجابته : انهما
على غاية ما يرام . زوجي في عمله وولدي يلعب في فناء الدار .
انظر اليه من هذه النافذة لقد كبر واصبح يتكلم جيداً ويعبر
بلغة مفهومة عن كل ما يشاء .

سأدعوه اليك فترى منه ما يسرك ويشرح قلبك .
ثم قامت ودعت ولدها وجاءت به الى الحكيم فأخذه لابعه
ويحادثه احاديث الاطفال فرآه نبيهاً على رغم طفولته فهنا والدته
به ودعاه بطول البقاء .

ثم بدأ يسألها : كيف جارتك ليلى وولدها ؟ هل أدبتهما
التجارب وغيرت شيئاً من سلوكها ؟

فأجابته : مسكينة ليلى أيها الحكيم لينها باقية على حالها
بل زادت كثيراً عما كانت عليه من العيب والمجون وأمسّت لا
يهمها أمر من أمور الدنيا غير اشباع شهواتها البهيمية .

لقد كانت سابقاً عالقة بذلك الشاب الذي تعرفه . أما الآن
فأمسّت تعلق كل يوم شاباً جديداً وصار بيتها كالمواخير بؤرة
للفساد والرذائل .

ويخيل إليّ أن السبب الذي أوصلها إلى هذه النتيجة الوخيمة
هو ترك خليلها لها .

منذ أكثر من أربعة أشهر ابتداء الخلاف يدبّ بينها وبينه
سمعتهم مراراً يتبادلان الشتائم ويتعايران تعايراً
سافلاً .

هي تتهمه بحب بعض النساء وهو يتهمها ببعض الشباب .
هي تعيره بالخيانة والفسق وهو يعيرها بمثل ذلك واقبح
من ذلك .

ثم أخذت تزداد شدة الخلاف بينهما سريعاً . فلم يمض شهر
حتى تعاركا عراكهما الأخير الحاسم .

و كنت من حضور تلك المعركة المخزية التي استعبرت
 جذوتها بينهما في اوائل الليل فسمعت من نافذة بيتي التي تطل
 عليها كيف ابتداء في النزاع . سمعت اولاً لوماً عنيفاً وعتاباً
 شديداً من الفريقين ثم صياحاً وعريضة منهما ثم تهديداً ووعيداً ثم
 ضرباً بالكراسي والاواني البيتية التي سمعت دوي تكسیرها
 على الارض فعندئذٍ اسرعت اليهما لعلني اضع حداً لعراكهما .
 فدخلت البيت فرأيت ثورةً من ثورات الجنون مستولية
 عليهما . لا ثورة عادية من ثورات الغضب والحماقة .
 وكانت عينا كل منهما تقدحان شرراً و ناراً .
 وكانا يتلا كمان بالأيدي ويتضاربان بالأرجل و ببعض
 الاواني البيتية القريبة التناول منهما بكل قسوة و فظاعة كأنهما
 لم يكونا يوماً متحابين ولا خليلين بل خصمين من اشدّ الخصوم .
 لقد حاولت كثيراً ان اضع حداً للنزاعهما فدخلت بينهما
 مزاراً واحتملت كثيراً من ضرباتهما الموجهة دون جدوى .
 ثم جاء بعض الجيران وبذلوا كل جهودهم لاختاد جذوة
 النزاع بينهما . وكانوا كلما اخمدوها قليلاً لا يلبث احدهما ان
 يسعرها عن جديد فترجع اشدّ ضراماً واكثر خطورة وعنفاً .
 واخيراً حضر الشرطي وتدخل بالامر واقتادهما الى الدائرة

بعد ان كانا مهشمين .

ومنذ ذلك الحين انقطعت كل علاقة بينها وبينه وقد بلغني
انها ناشدته كثيراً ليعود اليها . فلم يعرها التفانياً .
ولما انقطع رجاؤها منه جنَّ جنونها وامست هائجة لا
ستقر على حال .

الحق اقول لك ايها الحكيم انني لم ارها بجالة التأثير الشديد
عندما فقدت زوجها وولديها كما رأيتهما بعد ترك خليلها لها .
لقد شاهدتها بنفسي في كلتا الحالتين فلم تكن بفقد اعزائها
مضطربة هذا الاضطراب ولا متوترة هذا التوتر ولا يائسة هذا
اليأس .

انها ظلت من شدة حرقة قلبها وانانيتها اكثر من شهر
تبكي بكاءً مرّاً . وتدعو على خليلها وتلعنه بافظع اللعنات .
وطالما سمعتها تعد النفس بالثأر منه .

لقد سمعت كثيراً لتهدئة روعها وكم وكم قلت لها : عليك
ان تعتقدي ان العناية الالهية قد دبرت هذا التدبير لتهتمي بأمر
نفسك وامر ولدك . فاشكري الله على ذلك وانزعي من قلبك
عوامل اليأس وفكرة الانتقام .

وكانت كلما سمعت مني هذا الكلام تهزّ رأسها وتزداد

سخطاً ووعيدا .

يبد أنها لم تتقم من خليلها بل انتقم من نفسها . لأنهم منذ
ذلك الحين استسلمت بكليتها للعهر نكابة به وفاتها انها لا تنكي
بذلك غير نفسها ولا تؤذي غير جسدها .

ومما زادني تأثيراً ايها الحكيم وملاً قلبي حزناً واسى موقف
ولدها منها . وهو كما تعلم لم يبق حدثاً بل اصبح يافعا يدرك الخير
من الشر .

سمعتة مرة يقول لها بلهجة مؤثرة :

لقد كبرت يا ماما ولست احتمل بعد اولاد الجيران ولا
اللحام والبقال وغيرهم بدعوني على اتفه الاشياء : يا ابن الزانية
ويحتقروني جد الاحتقار .
أليس لباقي الاولاد امهات مثلي ! لماذا انعير وحدي بك
ولا يتعيرون بامهاتهم ؟

انهم ليسوا اشد ذكاً مني ولا احسن سلوكاً ولا هم ايضاً
في دروسهم اكثر اجتهاداً .
لماذا ينظرون الي نظرة الازدراء كأنني دونهم وأنا لست
دونهم بشيء .

فأجابته امه : ان الحسد يا بني هو الذي يجعل بعض الناس

يقفون منا هذا الموقف العدائي . اشم من يشتمك وكن رجلاً
لا ينام على الضيم .

فاجابها الولد : وكيف يحسدنا الناس ونحن فقراء لا حول
لنا ولا طول ؟ انني اشعر اننا من المحقرين لا من المحسودين .
وسمعتة مرة اخرى يقول لها هكذا :

ما السبب لكثرة مجيء بعض الرجال الى بيتنا ؟
لماذا تقابلينهم بالترحاب وترافقينهم الى السوق وتنزهين
معهم في كل مكان !

أليسوا هم السبب الذي يجعلك موضع الارياب !
اتوسل اليك يا اماء عدم الاحفاء بهم وتجنب معاشرتهم .
وبقيت ليلى ايها الحكيم سالكة طريق الفحش على الرغم
من توسلات ولدها لها وظلت تستقبل الخالعين في بيتها وترافقهم
حيث يشاءون .

ان سلوكها الشائن اوجد سوء التفاهم بينها وبين وحيدها ثم
استفحل الخلاف بينهما سريعاً على إثر ما رآه بأم عينه .
فجاء اليّ يوماً وهو على اشد ما يكون من الاضطراب
والاكتئاب وقال :

انني اعدك ايها الجارة الفاضلة بمثابة امّ لي ولا انسى

ابداً جزيل فضلك عليّ وعلى اخوي الفقيد بن وعنايتك القصوى
بنا اكثر من الوالدة التي كانت ولا تزال تقضي نهارها خارج
البيت .

لقد جئت الآن لابوح لك بما انت تعرفينه عن الوالدة اذ
لا سبيل لأنكاره . ولأطلب معونتك لاجل مخاطبتها بكل
صراحة للاقلاع عن سلوكها المعيب .
لأنني لست اقوى بعد على البقاء الى جانبها اذا لم ترتدع
عن معاشرة السفلاء والخالعي العذار .

وقد صرّحت لها مراراً هكذا : اذا شئت يا اماه ان تبقي
بحوزتك ونكسي حبي واحترامي الدائم فعليك ان تتجني كل
ما يحط من قدرك وقدري . فلا تكرهيني على ان اتركك
وشأنك واهيم في بلاد الله قاطعاً كل اخباري عنك لأنني صرت
شاباً لا يمكنني ان احتمل عارك واعيش بقربك .
ثم صمت هنيهة وعاد يحدثني قائلاً :

وكيف اقدر ايتها السيدة الفاضلة ان احتمل عارها وفي
كل يوم اسمع عنها كلاماً فظيماً لا يقبله حتى عديم الاحساس .
لقد كنت البارحة في المدرسة ألعب مع بعض رفقائي
فسألني احدهم عن والدي فأجبت اني يتيم الاب فسمعت طالباً

من أبناء جيراننا يحبيه على الفور :
 لكلّ منا أب واحد أما أنت الذي تدعي اليتيم فلك آباء
 عدّة يختلفون الى بيتك ويغدون ويمسون فيه .
 أليس الموت عندي افضل من سماع هذا الكلام ؟
 وكما لقيت عمتي على الطريق تقول لي : صرت شاباً يا ابن
 اخي : فعليك ان تضع حداً لوالدتك التي امست فاحشة اكثر
 من الفاحشات .

وكذلك ابن عم والدي الذي تبرّع بتعليمي وبالقيام بكل
 حاجاتي يوصيني دائماً هكذا :
 كن رجلاً ولا تكن سكّيراً كالمرحوم ابيك ولا ماجناً
 خالماً كوالدتك .

ويكفيني ذلاًّ وغماً تهامس الناس عليّ عند اجتيازى
 الطريق الى المدرسة . وقد سمعت بعضهم احياناً كثيرة يتحدثون
 عني قائلين :
 مسكين هذا الولد يعيش في محيط فاسق وبين احضان ام
 عاهرة .

قولي لي بحقك ايها السيدة الفاضلة هل يقدر شاب شريف

ان يحتمل عار والدته واهانة الناس له بسببها ويسكت عنها ويظل
بقربها ؟

اود ان تعلميها اني لا احتمل ذلك وان تخبريها ايضاً انني
اقسمت على هجرها هجراً لا لقاء بعده اذ لم تغير سلوكها وتحافظ
على كرامتها وكرامتي .

فاذا كانت تؤثر معاشرة السفلاء على ابنها فلي ملء الحق
ان اعتقد نفسي يتيم الابوين وبلاد الله كلها مفتوحة امامي .
لقد ابكاني كثيراً هذا الولد واحرق قلبي عندما كلني عن
والدته وعن شدة تأثيره وانفعاله من اعمالها المنكرة . فوعده
ببذل كلما بوسعي لأجل اصلاحها .

وبقيت ايها الحكيم اكثر من شهر اكلمها بهذا الصدد كلاماً
لو وقع على الجماد لشعربه .

ولم أدع وسيلة من الوسائل سواء اكانت من باب الارشاد
او من باب التهديد بهجر ولدها لما لم اسردها امامها فلم تحفل
بارشادي ولا بتهديدي . اذ لم يبق للشرف ولا لعاطفة الامومة
من اثر في قلبها .

ومنذ ايام سمعتها تشتم ولدها شتماً لا يطاق وتنذره بعدم
التدخل في امرها . وقد عرفت بعدئذ انه تركها وسافر الى جهة

مجهولة دون ان يودعها او يعلمها مقر اتجاهه .

انني متأثرة كثيراً ايها الحكيم لتترك هذا الولد مدرسته
قبل اتمام دروسه . ولا سيما غربته وفقره وانكسار قلبه وهو لا
يزال رطب العود قليل الخبرة والتدبير ولكن لا بأس
فالعربة والحاجة تعلمانه كل شيء والعناية الالهية تحرسه في حمله
وترحاله لانه ولد عاقل ذكي لا يعدم من ينصره ويأخذ يده .
ان والدته لا تستحقه فلا حرج عليه اذا اثر حياة العربة
على الحياة مهناً بجانبها .

فلو كان عندها ذرة واحدة من الشرف والاباء لشعرت
بأن فراقه لها ومقاطعته اياها بسبب سوء تصرفها اشد عقاباً لها
من الموت .

وقد قابلتها بعد سفره ولتمها كثيراً على عدم اهتمامها بارضائه
ومحافظتها على عواطفه .

وقلت لها ايضاً : ان ملذات الدنيا باسرها لا توازي عند
الام نظرة واحدة من ولدها . فكيف لم تنضح ببعض ملذاتها
اكراماً له وتجنباً لفراقه ؟

فاجابني لست مخطئة تجاهه بشيء . انني لم ازجره يوماً الا

لكثرة فضوله وتدخله بما لا يعنيه .

فاذا كان منذ الآن والغشاوة لا تزال على عينيه يود أن
يستعبدني ويتسلط عليّ فغداً عندما يشتدّ ساعده وتكتمل رجولته
ماذا انتظر منه ؟

لا لا لن ادعه يتطاول عليّ ولا أن يفرض اوامره الجائرة
ولا ان يتدخل بشؤني الخاصة .

انني أوثر الف مرة بعده ولا استبداده .

ثم أردفت قائلة وهي تهزّ رأسها : ولكن غربته عن البيت
مهما طالت لن تتجاوز الاسبوع . غداً أو بعد غدٍ ترينه راجعاً
يطلب المغفرة عما صدر منه .

انني اعرف ولدي حق المعرفة فما هو جدير باحتمال مضض
الغربة في هذه السن ولا هو اهل لأن يكسب معاشه من تعبته
وعرق جبينه .

غداً ترينه عائداً الى البيت مكسور الشوكة طائعاً .
فأجبتها : لا اعتقد كما تعتقدن ولا اتأمل بأنك غداً ترين
وجهه فقد صرّح لي مراراً كما اخبرتك في حينه : بأنه اذا
غادرك فلن يعود اليك .

قالت : هذا كلام لا اعول عليه قليلاً ولا كثيراً .

لقد خبرت هذا الولد حق الخبرة ودرسته كل الدرس فهو
 قائم على والدته كثيراً بسبب شذوذها . فلن يعود اليها ولن
 يحمل عارها ولو سددت بوجهه ابواب الرزق والتجأ الى
 التسوّل .

انها خسرت ولدها الى الابد وهي لا تزال معتقدة انه
 سيأتيها مستغفراً طائعاً .

فيا لشقاءها !

والآن اسألك ايها الحكيم هل بين النساء مثل ليلى توءنون
 الانغماس بملذاتهن على الاعتناء باولادهن وتستأثر الخلاعة بقلوبهن
 وتعمي ابصارهن وبصائرهن الى هذا الحد ؟

الحكيم — ان من يتفقد الحياة الانسانية على الارض يرى من شذوذ
 الطبيعة البشرية ومن ضروب عجائبها وغرائبها ما يخيّر احكم الناس
 عقلاً وادقهم علماً وفهماً .

فكما ان الانسان مركب من خلايا متنوعة متباينة هكذا
 هو ايضاً مجموع شهوات متعدّدة متناقضة . فكلما تقاربت من
 التوازن شهواته تتوازن اعماله واخلاقه وكلما اختلفت تختلف
 نتائج سلوكه وفعاله .

ومتى طغت شهوة على المرء فهي ولا شك تسيطر عليه

وتستأثر به سواء أكانت شهوة الغريزة الجنسية ام شهوة الطمع
 ام شهوة الحكم ام غيرها من الشهوات الضارة او المفيدة .
 وعبثاً يحاول اي كان ايقاظ ضميره متى تحكمت الشهوة في
 حواسه تحكماً تاماً . لأن الضمير يعجز في مثل هذه الحالة عن
 مصارعة الشهوة الجائحة الجامحة .

والناس كلهم خاضعون للشهوات نراها تستقوي عند بعضهم
 بسبب ضعف ارادتهم فتغلب عليهم وتغفل عن البعض الآخر
 بسبب قوة ارادتهم فينتصرون عليها .

ولكن لسوء حظ الجنس البشري ان نزعاته الغريزية مفطورة
 اكثرها على الشر منها على الخير ولا ندري ما سبب ذلك أ الحكمة
 خفية في الطبيعة لا ندرکها ؟ ام لنقص فيها لا نعرف نتائجه
 ومسبباته ؟

ام لأن الطبيعة - وهو الاصول في نظري - لا تفرق
 الخير من الشر لأنها فوق الخير والشر .

ولكننا نحن البشر ابناء هذه الطبيعة مهما ارتقت مداركنا
 وسمت معارفنا لا نقدر ان نسمو مثلها فوق الخير والشر .

لأن ميزة الخير من الشر ما هي بالحقيقة الا ميزة العمل
 المفيد الذي يؤول لارتقاء الجنس البشري من العمل الضار

المؤدي لانهطاطه .

• فنتيجة عمل الخير او الشر اذن هي نسبية تنحصر بنتائج

اعمال الانسان وتعلق بحياته القصيرة على الارض .

والآن مانا ولهذا الموضوع فلنعد الى حديث ليلى - ليلى

المسكينة التي غلبتها الشهوة على امرها في معترك هذه الحياة .

• ان شذوذها يُعد شذوذاً عادياً بين غرائب شذوذ الناس .

فكم امرأة تفتك بزوجها واولادها لاشباع شهواتها وكم

امرى يتعمد قتل زوجته وبنيه لغاية في نفسه .

• اما ليلى فلم تصل بشذوذها الى هذا الحد .

انها ضعيفة الارادة من طبيعتها فلم تقوَ على امتلاك عواطفها

وكبت نزعات نفسها .

ومما زادها ضعفاً واستهتاراً زواجها برجلٍ مدمن خلع لم

يحقق احلامها ولم يملأ قلبها .

• فعلقت غيره واستسلمت بكليتها اليه .

ان ضعف ارادتها ومساوئ زوجها وغرامها الحاد بغيره ،

كل ذلك اقصاها عن واجباتها كزوج وكأم .

وعندما ثمر كها خليلها استولت عليها الانفعالات النفسية

والثورات العاطفية لما هي عليه من ضعف الارادة والاستهتار .

وقذفت بها الى مهاوي اليأس .

ثم ارادت ان تتخلص من ياسها فاولحت لها اذنيها طريق
الفحش والمنكرات . فتوغلت بها وهامت على وجهها في بيدا
الاثم لا تسمع صوت ضميرها ولا توسلات ولدها ولا تصغي الى
ارشاد المخلصين من اقاربها واصحابها .

انها تنشد لذّة ضائعة في مهامه الحياة كما ينشد كل منا لذاته
لكنها ضلّت عنها كما يضل الكثيرون وسلكت طريقاً تؤدي
الى هلاكها .

وما مثلها في ذلك الاً مثل المريض الذي يضلّ عن الدواء
الشافي فيشرب السم الزعاف بدلاً منه ويقع في شرك الموت بينما
هو يتداوى للتخلص من الموت .

اما ولدها فحسناً فعل في تركها بعد ان عجز عن اصلاحها
لأنه ينظر الى الحياة غير نظرها « وكثيرون هم الابناء الذين
ينظرون الى الحياة بنظاراتهم لا بنظارات آبائهم » وهو بقربها
كالزنبقة النابتة بين الشوك . اذا ظلت مكانها يخنقها القتاد واذا
اقتلعت وزرعت في مكان أمين تكبر وتنمو وتعطي زهراً بديعاً
عاطر الشذا .

ولا شك ان المستقبل القريب يحمل السعادة له والشقاء لها .

الفصل الحادي عشر

النهاية المشؤومة

في اوائل سنة ١٩٣٧ جاء الحكيم الى منزل سلمى ليقدم لها ولزوجها واجب التهئة في العام الجديد ويشكر لهما تلتفهما بزيارته وقيامهما بمعايدته .

وقد اتى بدراجة صغيرة اهداها فور وصوله الى ولدهما الصغير الجميل واوصاه الا يسرع بها كي لا توقعه . فتناولها الولد بفرح جزيل قائلاً :

انها لا توقعني وقد كان عندي مثلها قدّمها البابا لي في يوم عيدي . وكنت اسابق السيارة بها دون ان اسقط عنها . ثم ركب الدراجة وهمّ بالانصراف . فاوقفته والدته قائلة : وهل تذهب دون ان تشكر للحكيم هديته النفيسة ؟ فعندئذ توجه الولد نحوه شاكرًا ثم انصرف يعدو عليها ذهاباً واياباً في فناء الدار .

أما سلمى فاخذت نقص على الحكيم كيف قضت ليلة العيد في بيتها مع زوجها وبعض الاقارب والعيالات الكريمة .

وقد اسهبت في وصف المأدبة التي اقامتها في منتصف الليل اضيوفها
وقالت : انها كانت شائقة رائعة كما كان استقبال العام الجديد
في منزلها حافلاً بجميع انواع البهجة والحبور .

فاجابها الحكيم : لا شيء ابهج للقلب ولا امتع للنفس من
قضاء الاعياد في محيط العيلة الفاضلة التي يخيم فوقها ظل الحب
والسلام . لأن بهجة العيد الصحيحة لا ترسم على الوجوه ولا
تحتاج حبات القلوب الا ضمن جدران المنازل التي يسود فيها
حسن التفاهم والاخاء الحقيقي بين أفراد العيلة الواحدة .

ان كل يوم من ايام العام هو بمثابة عيد سعيد عند من
يتمم واجباته العائلية دون ان ينسى واجباته الانسانية . وكل
عيد هو والحق يقال نذير شوؤم عند من يهمل واجباته نحو عيلته
وذويه وابناء محيطه .

فالحیوان الضار الذي لا يدرك نتيجة عمله هو خير من
الانسان الضار الذي يعتمد الاذى بينما هو يدرك عواقبه
الوخيمة .

ثم جاء على ذكر ليلى ونتائج اعمالها المنكرة وقال : انها
كانت شوؤماً ووبالاً على عيلتها .

فاجابت سلمى : وعلى نفسها ايضاً ايها الحكيم لأنّها منذ

خمسة عشر يوماً أصيبت بالجنون من جراء شدة تهتكها .
فسألها الحكيم : كيف كانت حياتها بعد اغتراب ولدها
وكيف ابتدأ جنونها ؟

قالت : انها بقيت مدة تعتقد برجوع وحيدها ولم تقطع
الأمل من عوده إلا بعد مضي ثلاثة اشهر على فراقه وخصوصاً
عندما اخبرها احد اقرباء زوجها انه سمع من معارفه بان ولدها
سافر الى مجاهل افريقيا . وعندما قيل لها ايضاً : بانه هبط مصر
ودخل بخدمة عيلة ذهب برفقتها الى الشرق الاقصى .
ان ولدها لم يذكرها بكلمة منذ سفره ولم يكتب حتى الآن
لأحد من اقربائه .

اما والدته فقد خلاها الجو بعد ذهابه ولم يبق أحد يحاسبها
على فداحة اعمالها ولا على جعل بيتها بؤرة لانواع الموبقات .
فامست كل ليلة تستقبل علانية جمهرة من المتهتكين
والمتهتكات . وكأن الفسق وحده لم يكن كافياً لاشباع
شهواتهم فكانوا في خلال تهتكهم يسكرون ويمحشون الليل
بطوله ويرقصون ويعربدون ويغنون غناء الرعاع وكانوا ينتهون
غالباً فيما بينهم بالخصام والملاكمة حتى ضج الجيران منها ومن

زوارها الخالعين واستنكروا اعمالها التي لا تطاق . وشكبوها
الى دائرة الاخلاق وزجت مراراً في السجن . وكانت كلما
خرجت منه تعود الى سابق حالها بأشدّ وافظع مما كانت عليه .
ويخيل اليّ ان شبّح ضميرها المائت كان يبدو امامها في
بعض الفترات ويؤنبها على مساوئها بل كأن قلب الأم المتحجّر
في صدرها والمحتضر قبل احتضارها لا تزال تحتلج فيه بعض
نبضات الامومة التي كانت تولد فيها وميضاً من الحنان فتذكر
ولدها في ساعات وحدتها وسكونها وتبكي على فراقه . وقد جاءت
اليّ مراراً وطلبت مساعدتي لأجل معرفة مقرّه . حتى انها في
بعض الاحيان كانت نقبّ اعمالها وتظهر ندمها على سلوكها الشاذ
وقد سمعتها مرّة تلعن نفسها مجاهرة على مسمعي بانها هي التي
سببت بعد وحيدها عنها .

لكن ندمها ايها الحكيم كان يشبه هبوب الريح فلا تكاد
تشعر به قليلاً حتي يتوارى عنها سريعاً ثم تعود الى الانغماس بجماة
ردائلها غير حافلة بوطاة شذوذها ولا بفرقة وحيدها .

أجل ان الرذيلة كانت متسلطة عليها ومتحكمة بها .
غير انها جاءت اليّ يوماً ولا ازال اذكر ذلك اليوم .
وكان الشوق لرؤية وحيدها يمتلكها امتلاكاً والدموع تترقق

على خديها وقالت لي بلهجة يغمرها الحزن والاسى :
 هل جاءك يا سلمى خبر عن ولدي ؟ وهل عرفت مقرّه
 وكيف حاله ؟

ولما اجبتها انني حتى الآن لا اعلم شيئاً عنه . تنهدت تنهد
 اليائسين وقالت :

ليتني مت اشنع ميتة قبل ان يتركني وحيدى .
 يا ليت طيور السماء نهشت لحى وحيوانات البيد قصمت
 عظمي قبل ان يغادر ولدي وطنه وهو هكذا صغير السن .
 يا ليت امواج البحر ابتلعتني قبل ان تحمله الباخرة الى
 ديار الغربة .

يا ليتني اعرف مقرّه وكيف حاله .
 ما اتعسني امّا وما اشقاني امرأة .
 وما ان نطقت بهذا الكلام حتى اخذت ترتجف ارتجاف
 المصاب بالدوار ثم تقززت عيناها ووقعت على الارض مغشياً عليها
 لأن اعصابها أمست منهوكة جداً من جراء التهلك والمسكرات
 فساعدها ببعض المنعشات حتى استفاقت وعادت الى بيتها .
 وبعد اسبوع جاءت اليّ مبكرة وطفقت تندب سوء حالها
 اماحي ثم اعترفت لي بانها مريضة خائرة القوى تشكو من بثورٍ

مزجعة ظهرت في جسمها منذ أكثر من نصف عام وهي التي سببت
ألمها وهزالها . فنصحتها باستشارة أحد الأطباء وبترك هذه الحياة
الخليعة التي لم تجن من ورائها غير المآسي .

فطلبت مني أن أقدمها الى طبيب عيلتنا ليعالجها فاخذتها
اليه ومنذ وقع نظره عليها اشتبه بمرضها فارسلها حالاً الى أحد
الاختصاصيين ليفحص دمها فجاءه الجواب انها مصابة بالزهري .
وما كاد الطبيب يبلغها نتيجة الفحص ويطلعها على العاقبة الوخيمة
لهذا المرض ووجوب الابتداء بالمعالجة حالاً لعلها تبرأ منه حتى
امتنع لونها وخافت خوفاً شديداً .

ومنذ ذلك الحين كثرت هواجسها وزاد بلبالها كما زادت
ايضاً حقدًا ونقمة على بني البشر . فأخذت بلا شفقة ولا رحمة
ترتاد احياء المدينة وتلقي شباكها على المارين باذلةً جهدها
لاصطيادهم .

وكانت تجلبهم الى بيوتها افراداً وازواجاً وتلقحهم بجرثومة
مرضها القاتل .

والويل كل الويل لمن كان يقع في قبضة يدها لأنها ما
كانت تستثني احداً من الواقعين في شباكها لا شيخاً مسناً ولا
شاباً في ميعة الشباب ولا يافعاً رطب العود .

نأمل بهذه المرأة كيف امست شرّاً مستطيلاً على نفسها
وضربة قاطعة على الناس .

وفي عصاري يوم بينما كنت جالسة الى شرفة داري رأيتها
آتية برفقة صبي لا يتجاوز السادسة عشرة من عمره وهو جميل
الطلعة ممتلئ حياة ونشاطاً .

ولما نظرته داخلاً بيتها استفزتني حمية الشفقة على عوده
الرطب وعلى قلب امه الروؤم فلحقت به الى داخل منزل ليلى
وشرعت أوئبها على مسمعه قائلة لها :

انك مصابة بالزهري فكيف تسوّل لك نفسك ان تلقّحي
هذا الولد بجرثومة دائك الويل .

أفلا تشفقين على صباه ؟ أفلا تخافين الله ؟ ان قلبي ينفطر
اسى كلما رأيت احداً يتألم امامي ألماً بسيطاً فكيف يسوّغ لك
ضميرك بان تكوني وباءاً فتاكاً بالناس واداة للشر الذي ليس
فوقه شر .

ولما سمع الولد كلامي خرج من بيتها لا بلوي على شيء .
اما هي فاستشاطت غيظاً وصاحت بي : يا للوقاحة كيف تدخلين
منزلي دون استئذان ؟ انتحاملين عليّ كل هذا التحامل ؟
ثم صمتت هنيئة وقالت بلهجة مقرونة بالقحة والحق :
ثم صمتت هنيئة وقالت بلهجة مقرونة بالقحة والحق :

و كيف تريد ان ارحم الناس ولم يرحمني احد منهم .
 و كيف اخاف الله من اجلهم ولم يخافوا الله من اجلي . و كيف
 لا اسعى لتشتيت شملهم وتسكير ديارهم بعد ان شئتوا شمي
 وسكروا داري .

ان الناس كلهم اعداء لي فكم اتني لو كان بامكاني ان
 انتقم منهم جميعاً كما انتقم شمشوم من اعدائه واصرخ عندئذ كما
 صرخ : علي وعلى اعدائي يا رب .

ولما رأيت منها كل هذا التصميم و كل هذا الحقد على بني
 البشر تركتها وذهبت تواراً الى دائرة الشرطة وشكوتها لا
 لأجل الحاق الأذى بها وحبسها . بل لأدخلها مستشفى الحكومة
 حباً لها لعلها تبرأ من داءها وشفقة على الفتيان المساكين الذين
 يقعون في اشراكها .

فدخلت مستشفى الحكومة وبقيت قيد المعالجة اكثر من
 شهر هناك . ثم عادت الى منزلها واستكنت فيه وما كانت تخرج
 منه الا ساعة المعاينة المخصصة لها من الطبيب .

وقد قطعت علائقها قطعاً باتاً مع جميع اصحابها وأوصدت
 بابها بوجههم بعد ان كان مفتوحاً امامهم ليل نهار .
 و كانت تقضي ايامها ضمن جدران البيت وحيدة محجوبة

عن الناس ما عداي لأنها كانت تزورني في بعض الاحيان
وتشكولي فرط يأسها وكثرة هواجسها وشدة أرقها .

وقد جاءتني صباح يوم وهي بغاية الاضطراب وقالت :
انها قضت ليلتها ساهرة وهي تخیل أولادها بجانبها وكم
تمنت لو كان خيالها صحيحاً لتمتع حقيقة بهم . وقد تخيلتهم
معاً وتخیلت كلاً منهم على حدة . فتمثل امامها ولدها المهاجر كيف
توكلها ممتعضاً منها ثم خيل اليها انه ينقل في بلاد الله غرباً بأساً
مرتدياً اسماً بالية ومستجدياً الاكف لسد رمقه ولا
ماوى له .

ثم تمثلت ولدها الثاني وهو يتقلب على فراش الوجداع في
البيت وفي المستشفى وكيف كانت لا تكترث له كثيراً في أبان
مرضه . وترأت لها جثته الهامدة وتخیلت امامها تابوته الحقيير
وجدنه الوضيع .

ولما انتقلت الى ذكر ولدها الصغير الذي قضى نحبه مدهوساً
تحت عجلات القطار الكهربائي هطلت دموعها وخنقتها العبرات
ثم قالت لي بصوت منقطع :

ان اسلاء ولدي يا سلمى لا تبرح من مخيلتي ليلاً ولانهاراً
وجثمانه الخفيف المرعب حاضر ابدأ في ذهني . اتخيله دائماً ملقاً على

قارعة الطريق محطم الجمجمة والصدر ومبتور الساعد والرجل
ومشور اللحم والعظم .

وأتصوره ايضاً كما شاهدته عندما ذهبنا معاً الى المستشفى
كناية لحم وعظام مشوهاً تشويهاً فظيعاً لا أثر لوجهه ولا لسائر
ملاحظه .

ان هذه التصورات المخيفة تعذبني عذاباً شديداً وخصوصاً
عندما أتأمل بانني انا الجانية عليه بسبب طيشي واهمالي امر العناية
به وبشقيقه .

ان هذا الجرم الفظيع الذي ارتكبته قد كلفني غالياً
ويا ليتة كلفني حياتي ولا خسارة اولادي .

ثم اخذت ايتها الحكيم تلعن نفسها امامي وتصبّ جام
غضبها على الشاب الذي علقها وابعداها عن عيالتها وقادها الى
الفحش ثم تركها بعد ان قضى وطره منها كما تترك الجيف .

لقد قالت لي ايضاً : انها تقضي كل ليلة من لياليها بين
الاشباح المخيفة - اشباح اولادها الضحايا واشباح ذنوبها
الكثيرة التي حرمتها الراحة والنوم .

ومنذ عشرة ايام بينما كنت افتح النافذة التي تطل على

بيتها اذا بي اراها واقفة على باب غرفتها عارية كما خلقها الله وهي
تضحك وتبكي في آن واحد . وتصلّي وتلعن في وقت واحد . ثم
اخذت تركض في الغرفة وتقهقه قهقهة الفاقد الشعور . ثم
ابتدأت تكسر بعض الاواني البيتية وهي تشدو بعض اغاني
الفاحشات وتراويل الراهبات .

ثم وقفت امام مرآة خزانتها ومذلمت خيالها اعتقدته امرأة
عدوة لها . فاخذت تشتمها شتماً فظيعاً وتتهمها بانها سلبتها
خليها وابعدته عنها . ثم صاحت باعلى صوتها : لقد حانت ساعة
الانتقام .

وذهبت مسرعة الى المطبخ وجاءت بسيخ مسنون وبقطعة
غليظة من الحطب واخذت تضرب المرأة بهما ضرباً متواصلاً
حتى اجهزت عليها وحطمتها تحطيماً ثم صاحت بملء فيها : لقد
ثأرت لنفسك منك ايتها العاهرة .

شاهدت ذلك منها فايقنت انها خولطت في عقلها . وخفت
من جنونها الهاجج بان يصدر منها ما لا تحمد عقباه ، فاسرعت الى
مخفر الشرطة وشكوت امرها ، فجاء نفر منهم واقتادوها عنوة الى
مصحّ المجانين .

وقد ذهبت امس لعيادتها ولأجل الاستعلام عنها فلم يسمح

لي بروئيتها لأنها لا تزال بين المجانين الهائجين وقيل لي هناك : ان
لا أمل بشفائها .

تأمل ايها الحكيم بشدة تعس هذه المرأة ونهاية حياتها
المشؤومة .

الحكيم - يا سلمي : ان حياة هذه المرأة مأساة من ارووع المآسي لأنها
مثلت بنفسها افطع ادوار البشر .

دور المظلوم عندما كانت في اوائل صباها تحت سيطرة
زوجها الاثيم .

ودور الظالم بعدما استسلمت للغرام وابتدأت تخون زوجها
غير مكترثة له ولا لاطفالها .

ودور التوغل في الفحش والموبقات نكايه بخليها الذي
نبذها ، وبئس النكايه .

ودور الثائر على جميع الناس بعدما اصبحت بداء الزهري
الويل ، فاستيقظ فيها شيطان الانتقام الراقد في قلبها وجعلها
كاللوة الجائعة واقفة بالمرصاد لطريدتها ومتحفزة للانقضاض على
كل من تكتحل به عينها .

وشيطان الانتقام في المرأة فظيع جداً فاذا استيقظ فيها لا
يبقي على أحد ، لا على عدو ولا على صديق ولا على ولد .

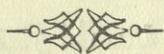
وعندما اشتدَّت اوجاعها وكثرت هواجسها انتقلت بحكم
الطبع الى تمثيل دور الندامة واليأس ودور الاشباح المخيفة
والذكريات الاليمة التي كانت اشد وقعاً عليها من الداء .

ليتها انتهت بعد ذلك الى القبر ولم تقسو عليها الطبيعة وثقودها
الى تمثيل دور الجنون الذي افقدها شعورها وجعلها عبدة لغيرها
لا انفسها ، لأنها أمست لا تدري الآن أخيراً ما وصلت اليه أم
شرّاً ، وثواباً ما تقاسيه أم عقاباً .

ان منتهى التعس والشؤم في هذه الحياة الدنيا ان يسمي
المرء نذيراً لغيره لا لنفسه .

وما احكم الآية القائلة :

يا رب لا تجعلني نذيراً لغيري .



الفصل الثاني عشر

الحكيم يتفقد ليل في مصحح المجانين

جاء الحكيم الى مستشفى المجانين ليتفقد ليلي . فذهب فور وصوله الى مكتب رئيس الاطباء الذي كان صديقاً حميماً له وسأله عنها ثم التمس منه بان يسمح له بزيارتها ويرافقه اذا كان لديه متسع من الوقت لتفقد المجانين الذين نبذتهم الحياة وقضت عليهم بتمثيل افطع دور من مآسي الوجود .

فنزل الرئيس عند طلبه وذهب به اولاً الى مستشفى النساء ليرى ليلي وكان يرافقهما المتولج امر تلك النسوة التاعسات اللواتي كانت كل واحدة منهن تقيم في غرفة وحدها . وامام كل غرفة فسحة صغيرة للتنزه يدخلها نور الشمس والهواء النقي من اطرافها المشبوكة بالقضبان الحديدية التي لا تمكن الساكنة فيها من الخروج منها . أما الباب فموصدٌ ابداً لا يفتح الا عند عيادة الاطباء او عند جلب الحاجات اللازمة لكل منهن .

وقبل ان يبلغ الحكيم اول غرفة من غرف الهائجات سمع اصواتهن الممزوجة بين التهديد والوعيد والتوسل والاستعطاف

واللعنات والشتائم .

ولما بلغ اول حجرة رأى من بين الحديد مخلوقة هائجة شاذة
الخلق والغرائز نائرة على نفسها كما تنور اللحم وجادة في تمزيق
ثيابها ولدم صدرها ورأسها .

كانت تبدو للعيان من جرّاء هياجها الشديد بشكل فظيع
جداً يتخيلها الرائي لأول وهلة كأنها ليست من مرتبة الانسان
ولا من مرتبة الحيوان بل من عنصر غريب عنهما مركب من
افظع عناصر الوجود .

فشرع الطبيب حالاً يعالجها ببعض المسكنات . ثم توجه
مع الحكيم الى الغرفة الثانية . وكانت المرأة القائمة فيها هادئة
نوعاً . فلما وقع بصرها عليهما حملقت بهما وأخذت تزار زئير
الحيوان وصاحت بملء فيها :

ودّعوا نساءكم وأولادكم ايها الاوغاد - غداً اسلّط عليكم
النار والكبريت وافنيكم على بكرة ايكم - ان لي جيشاً من
الجن يبيدكم بلحظة عين - خرّوا واسجدوا امام ملكتكم القابضة
على زمام حياتكم والمتسلطة على قوات السماء وجحافل الارض
وكانت تقترب من الحديد وتمزّه هزاً بكتليديها كأنها
تودّ الافلات منه لتنقض على الواقفين امامها .

ثم انتقل به الطبيب لتفقد سائر الهائجات وقد سمع واحدة
منهن تقول : لماذا وضعت بين المجانين وانا احكم الناس عقلاً
واقدرهم علماً - انا لست مجنونة كما تعتقدون - انتم المجانين انتم
الذئاب المفترسة - انتم الافاعي السامة - انا الحمل الوديع - انا
الحمامة اللطيفة - انا العذراء الطاهرة الذيل - انتم الخبثاء الجبناء
الذين احتملوا عليّ ووضعوا السلاسل في عنقي لوئماً وخداعاً -
انتم الاندال الخونة الذين تتبعون اثري من مكان الى مكان .
موجهين ضدي عسكراً جراراً لأجل القضاء عليّ .

ولما بلغ الحكيم غرفة ليلي لم يعرفها لأن جنونها الهائج غير
ملائمها تغييراً كلياً والنوبات القوية التي كانت تحتاجها نباعاً
أحدثت حولاً فظيماً في عينيها وخللاً بارزاً في تقاطيع وجهها .
فعرّفه الطبيب بها . وكانت في تلك الساعة غير هائجة تسير في
دار غرفتها ذهاباً وإياباً وهي منشورة الشعر - جامدة النظرات -
ضائعة الفكر وسائحة في عالم اشباحها وتخيلاتهما .

وعالم الاشباح هي عالم المجانين .

ولما اقترب الحكيم منها واخذ يلاحظها عن كثب متأملاً
هيئتها الفظيعة التي تنكرت عليه . خيل اليها انه عدو لدود جاء
ليفتك بها فصاحت به :

أبعد أبعد ! ماذا تريد مني ايها الوقح ؟ أتريد قتلي لأنني
انزلت الملوك عن عروشهم وقتلت المستبدين والظالمين الذين
فشكوا بآبائهم وطهرت الارض من النساء الخالعات اللواتي سلبني
حبيبي وأمتنه افطع ميتة ؟

ثم هجمت من بين الحديد وهي ترغي وتزبد كأنها تريد ان
تنقم منه لكنها لم تلبث حتى تراجعت الى الوراء وهي ترتجف
خوفاً ثم شرعت تضحك قائلة : اهلاً بكم ومرحباً - ادخلوا
هذه الحانة - اجلسوا على هذه الكراسي - العرق طيب هنا
والخمر معتق - والموسيقى شجية - والنساء جميلات .

ادخلوا ادخلوا لا تخافوا ! لقد اعطينكم الامان .

ادخلوا لقد أبتدأت الحفلة الراقصة .

ثم اخذت ترقص قافزة في دار الغرفة كما يقفز الطير الذبيح
ومتمرغة على الارض كما تنمرغ البهائم .

فأوما الطبيب للحكيم بان يبتعد عنها لعلها تبدأ نوبة
جنونها أو على الأقل كي لا تزداد هياجاً لأنها غالباً عندما ترى
الناس واقفين بقربها أو مارين امامها تتوتر اعصابها وتخرج
هياجاً شديداً .

ثم مشياً معاً وانتحياً مكاناً يراقبانها منه دون ان تراهما .

وبعد أن تواریا عنها وقفت منتصبه في دار غرفتها وجمدت
مكانها دون ان ترمش جفناً او تحرك رأساً او ساعداً او
رجلاً كأنها جلمود لا حياة فيه . أو كأنها شبح من اشباح
الجن أو اسطورة من اساطير الاقدمين .

فتأثر الحكيم للحالة الفظيعة التي وصلت اليها وأخبر الطبيب
كيف كانت فتنة للنظرين و كيف أمست بعد جنونها هيكلًا
مجسمًا للقبج . ثم سرد له قصتها من الاول الى الآخر وسأله عنها
اذا كان يأمل شفاءها .

فأجابه : انه يعالجها اتماماً للواجب لكنه كطبيب لا يعتقد
ذلك لأن مرض الزهري سمّ دمها واجهز على دماغها والكحول
اتلفت كبدها واضعفت قلبها وشرابها وسيقضى عليها اثر
نوبة من نوباتها الهائجة .

ثم قال للحكيم : أما المرأة التي نظرتها في الغرفة الثانية
فشفاؤها ممكن لأن حالتها ابتدأت تنحسن تحسناً مطرداً . فبعد
ان كانت منقطعة عن النوم وعن الاكل انقطاعاً تاماً والنوبة تأتيها
اثر النوبة اصبحت اليوم بعد المعالجة تأكل طعامها وتنام معظم
الليل وبعض النهار وقد خف هياجها عما كانت عليه .

انها عصبية المزاج سوداوية الطبع شديدة التشاؤم لا تفكر

الآن بما يؤذيها او بما يزعمها ويقلق راحتها فملكها داء النورستانيا
واضعف دما وقادها الى الجنون .

وقد اخبرني زوجها عنها انها كانت قبل جنونها غريبة
الطبع تظهر في بعض الاحيان ذكاء مفرطاً ولطفاً متناهياً لكنها
لا تلبث ان تفقد توازنها فتزعج بلا سبب موجب للانزعاج
وتهرج بلا داع للهرج .

و كانت لا تبقي في مخيلتها من الذكريات غير التي تسيئها .
ويكفي ان تفكر بواحدة منها ليشتل قلبها بعوامل
الانزعاج ويستغمر طبعها بنار الغضب .

ولهذا السبب كانت تصدر منها افعال شاذة للغاية . وقد
ألمح لي زوجها عن بعضها : منها انها كانت توقظه احياناً في
الليل لاجل معاتبته على امور طفيفة عملها منذ عشر سنوات أو
لأجل ان تذكره بكلمة غير مستحبة قالها لأحد اقربائها في عهد
الخطبة .

و كانت تجسم الكلام وتعيده تكراراً على مسمعه بلهجة
شديدة العنف لتظهر له فظيعة اثمه الذي لا يغفر .

و كانت ايضاً عندما يتوعدك مزاجها قليلاً تشتد عليها
السويداء فتسوء اخلاقها وتجعلها في منتهى الشراسة . فتقضي

اوقات انحرافها تارة بالانين وطوراً بشتم زوجها وخادمتها وبضرب
اطفالها . مع ان زوجها كان يحسن معاملتها جد الاحسان ويعطف
عليها كل العطف ويزداد عناية بها في ابان مرضها ويحاول دائماً
تسكين روعها متحملاً شتاؤها بدون امتعاض لأنه كان عالماً
بضعفها وتوتر اعصابها . اما هي فكانت تزداد نقمة عليه وتحمله
دائماً تبعه مرضها وآلامها النفسية والجسدية .

ومما لا ريب فيه ان حالتها العصبية هي التي جعلتها معدومة
الاتزان وسبباً للظن ودائمة التشاؤم .

فاذا تمكن الطب من شفاء جهازها العصبي شفاءً تاماً فهي
ولا شك تبرا من جنونها وتعندل طباعها ويخف تشاؤمها وسوء
ظنها .

ثم هم الطبيب بالانصراف لاتمام دورة المستشفى فالتقى الحكيم
قبل ذهابه نظرته الاخيرة على ليلى فراها لا تزال جامدة مكانها
جمود الصخور ومنتصبه كأنصاب القبور وعيناها الغائرتان في
وجهها ساهيتان في سماء الغرفة تائهتان في جو اشباحها وتخيلاتهما
الغريبة .

فقال في نفسه : ان الارزاء مهما كانت فادحة تسلب المرء
بعض اشياءه وتبقي له على بعضها . اما الجنون فهو بحق يدعى رزء

الارتزاء وبلية البلايا لانه يعرف صاحبه من كل شيء .
وبعد ان انتهى الحكيم من تفقد الهائجات ودرس حالتهم
الفضيعة ونفسياتهم الشاذة . انتقل به الطبيب الى فرع النساء
الهائجات وكن في الحديقة يتنزهن مع ممرضاتهن . فألقى الحكيم
فور وصوله نظرة اجمالية عليهن جميعاً فرأى علائم الجنون بادية
على وجوه بعضهن وغير ظاهرة على ملامح البعض الاخر اللواتي
شاهدتهن مجتمعات تتبادلن الاحاديث المختلفة كأنهن غير فاقدات
الشعور .

ثم شرع الطبيب يشرح له سبب جنون بعضهن .
وانه كذلك ، اذا بفتاة في مقتبل العقد الثاني من عمرها تقترب
منها وتشارك الطبيب في هذا البحث ثم اخذت تصف الاعراض
التي تفتاب بعضهن وصفاً دقيقاً متزناً . فحسبها الحكيم لأول
وهلة من معاوفي الطبيب او احدى ممرضاته النابهات .
لكنها ما عتمت ان ابتدأت تخلص الحابل بالنابل متقلبة في
احاديثها من التعقل الى الهذيان ومن الهذيان الى التعقل .
فسأل الطبيب عنها : فأجابه : انني اعرف هذه الفتاة منذ
صغرها . كانت قبل مسهاً شديدة الذكاء والنباهة متفوقة في
عهد الدراسة على كل رفيقاتها ، ولما دخلت الكلية الطبية لتتلقى

فن التوليد كانت اصغر الطالبات سنًا لكنها اذقهن علمًا واعمقهن درسا وفهماً .

وبعد حصولها على الشهادة الطبية زاولت مهنتها مدة وجيزة لمعت فيها بسرعة البرق وبزّت بقوة حذقها واجتهادها ليس فقط رفيقاتها في الدراسة بل ايضاً بعض من سبقها من المولدرات . حتى ان كل من عرفها وخبر نبوغها يومئذ امل لها مستقبلاً باهراً .

و ذات يوم جاءني والدها مضطرباً واخبرني انها خولطت في عقلها فجأة بينما هي تتناول طعام الافطار . فأسرعت اليها فرأيتهما مختلةً فجئت بها حالاً الى هذا المستشفى .

وقد علمت من والديها انها كانت لا تكتفي باجتهاد قواها في مزاوله فنّها ومعالجة مرضاها بل كثيراً ما كانت تصرف ساعات فراغها منسكبةً على المطالعة والدرس الى ما بعد منتصف الليل .

فحصل لها اختلال من جراء كثرة اجهاد الجسم وتعب الذهن .

والأمل بشفاؤها عظيم بعد ان تنال قسطها من الراحة وحسن المعالجة .

ثم اشار الطبيب الى مريضة في مقبل الكهولة هزيلة الجسم

مضعضة الحواس جالسة وحدها بعيدة عن رفيقاتها ، وقال للحكيم :
انك ولا شك تعرف هذه الأنسة التي ربما تنكرت عليك الآن
بسبب هزالها وتغير ملامحها .

هي الكاتبة المشهورة ألمع ادبيات الشرق وارقاهن ثقافة
وعلماً .

لقد تألّبت عليها الكوارث واجتاحها العوارض الجسدية
والنفسية فأتلقت صحتها واجهزت على دماغها .

انني الآن ابذل كل ما بوسعي لأجل نجاتها . لأنها مفخرة
من مفاخرنا القومية ومنارة من منائر العلم الساطعة في هذا الشرق .

وبعزّي عليّ ان تنطفئ انوار معارفها قبل اتمام رسالتها .
لكنها اذا ظلت على حالتها هذه متمنعة عن الطعام وقبول
المعالجة فلا أمل لها بالشفاء .

وبعد ان حدثته ملياً عنها وعن العوارض التي تنتابها من
حين الى حين . ذهب به الى مستشفى الرجال . وهناك لم يمكث
طويلاً لكي لا يعوق الطبيب عن متابعة أعماله النافعة .

ولم يزر الحكيم إلا فرع المساكين الذين كانوا في تلك
الساعة يتنزّهون في الحديقة المخصصة لهم .

فمشي والطبيب بينهم واخذ يتفقدهم واحداً واحداً ، فشاهد

معظمهم ينتقلون على غير هدى في ارجاء الحديقة كأنهم عميان
لا يبصرون .

ويا ليتهم عميان البصر لا عميان البصيرة .

ثم شرع الطبيب بقصّ على الحكيم اهمّ اسباب جنونهم قال :
ان الاكثرية الساحقة منهم قد فقدوا شعورهم من جراء
كثرة ادمانهم ومن عواقب داء الزهري الويل . اما الاقلية
الباقية منهم فقد خولطوا في عقولهم بسبب امراض متنوعة اهمها :
الامراض العصبية المختلفة التي تحدث ضعفاً عاماً في الجسم وخلاًلاً
في نسيج الدماغ .

ثم امر الطبيب أحد معاونيه بان يدعوهم جميعاً اليه . وان
يصفّهم فئة فئة امامه بحسب امراضهم ثم اشار الى الفئتين الكبيرتين
وقال للحكيم : انظر ضحايا الزهري وضحايا المسكرات . وتأمل
كم هو كثير عددهم بالنسبة الى سائر الضحايا .

ولما تبين الحكيم عددهم الهائل وحالاتهم الفظيعة ورأى
معظمهم في ريعان الشباب انقبضت نفسه وتأثّر تأثراً شديداً .
وعندما جاء يودّع الطبيب وضع يده بيده وخاطبه بهذه
الحقيقة المؤلمة :

ان من يتدبر حياة الناس على الارض ويراقب نزعاتهم
 واطوارهم يروى ان عدد هولاء الشبان الضحايا المائتين امامنا في
 هذا المستشفى ليس فقط هو غفير في عالم المجانين بل في عالم انصاف
 المجانين ايضاً .

ولا أقول عالم العقلاء لأن الجنس البشري لم يبلغ بعد هذا
 العالم ولن يبلغه ولن يقترب منه الا بعد ان يتعاون الحكماء والاطباء
 وعلماء المادة والروح تعاوناً تاماً في حل مشاكل الجنس البشري
 ومكافحة غرائزه الوحشية ومعالجة امراضه النفسية والجسدية .
 اما الآن فيعز عليّ كثيراً ان أرى الآفات البشرية
 نكتسح الناس بالملايين وتكبلهم باغلالها ويد الانسان لا تزال
 عاجزة عن اكتساحها والقضاء عليها .

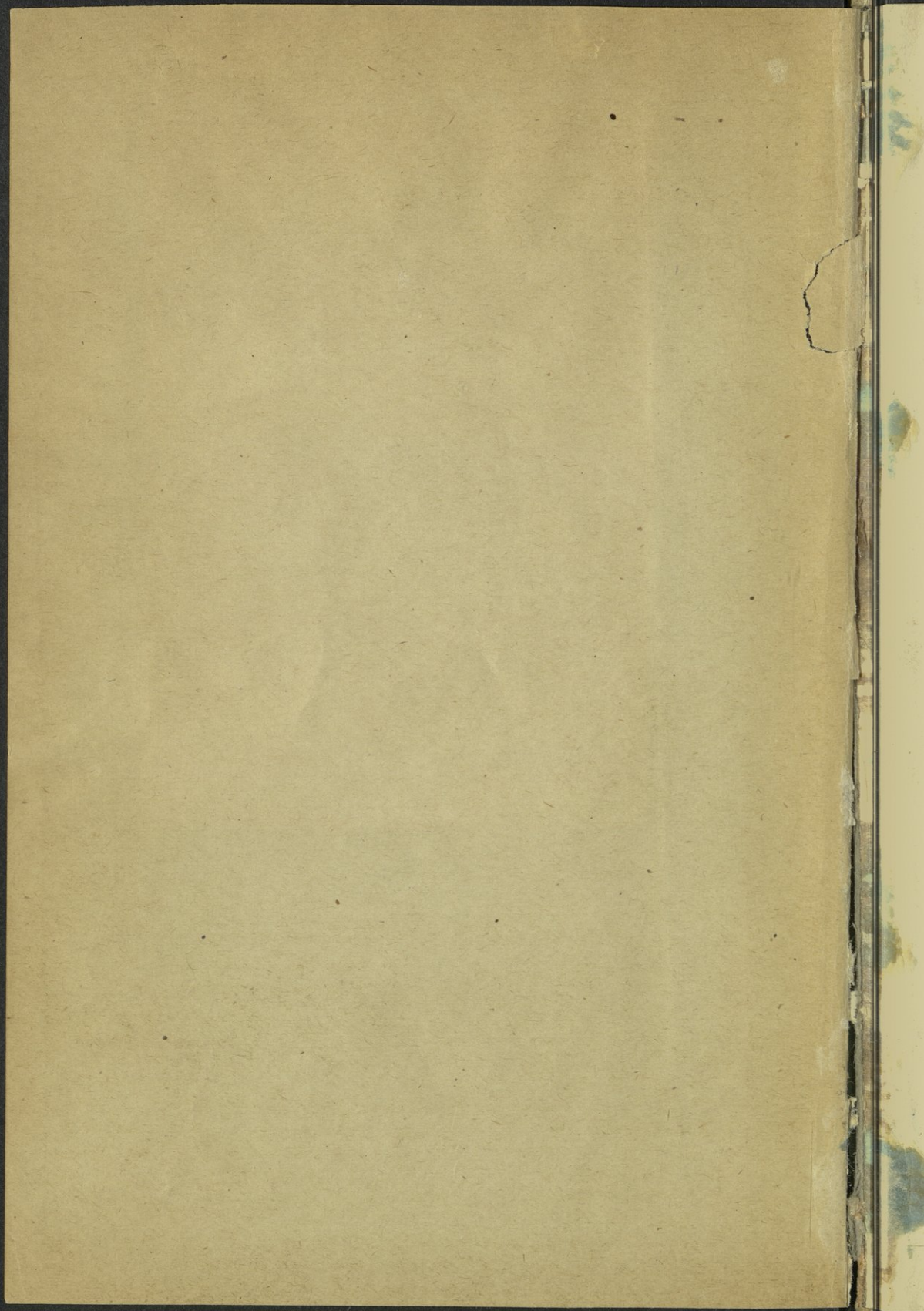


فهرست (٢١) الهمجي

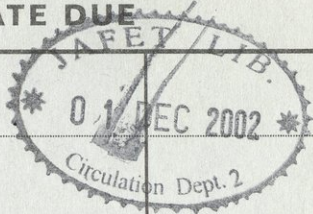
صفحة	الفصل السابع	صفحة	الفصل الاول
٩٢	الحكيم يرتاد المصايف اللبنانية	٥	سلمى وليلى
	وبلتقي بليلي وخليها	٩	الحكيم في بيت سلمى
	الفصل الثامن	١١	حديث المائدة
١٠٦	سلمى تزور الحكيم وتقص عليه		الفصل الثاني
	حوادث ليلى الجنونية	١٥	ليلى في بيت الحكيم
	الفصل التاسع		الفصل الثالث
١١٦	الحكيم يزور ليلى ويعزيها بوفاة	٣٤	الحكيم يلتقي بليلي في سهرة راقصة
	ولديها وزوجها		الفصل الرابع
	الفصل العاشر	٤٣	سلمى تزور الحكيم وتحديثه عن
١٢٠	الحكيم يزور سلمى فتقص عليه		جارتها ليلى
	بعض اخبار ليلى		الفصل الخامس
	الفصل الحادي عشر	٦٠	الحكيم يتأمل في شذوذ الآباء
١٣٥	النهاية المشؤومة		والامهات وتعس اطفالهم
	الفصل الثاني عشر		الفصل السادس
١٤٨	الحكيم يتفقد ليلى في مصح المجانين	٦٩	الحكيم يشاهد ليلى في نادي الشبان
			ويتباحثن في غاية الحياة



وقع في هذا الكتاب بعض اغلاط مطبعية لا تخفى على الناقد البصير .



DATE DUE



892.73.5h53ha

المشردوني، توفيق، حسن

الحكيم وليلى

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01038174

American University of Beirut



General Library

892.78
Sh562hiA
c.1